رواية

تَشْرِيقَةُ المَغْرِبِي

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب: تَشْرِيقَةُ المَغْرِبِي
التأليف: عُمَرْ فَضْلُ الله
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 200 صفحة
عدد الملازم: 12.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/ 28026
الترقيم الدولي: 978-977-278-803-3

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

فازت بجائزة

الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي ٢٠١٨

رواية

تَشْرِيقَةُ المَغْرِبِي

عُمَر فَضْلُ اللّه

دار الشير للثقافة والعلوم

إهداء

يا من تظنون أن أفريقيا جنوب الصحراء لم تكن بها على مدار القرون الماضية سوى الأدغال والوحوش والعراة، أهديكم سحر أساطيرها وعبق أيامها.

يا من عرفتم التغريبات من مشرقها، إليكم تشريقة واحدة من مغربها.

الفهرس

تقديم لرواية تشريقة المغربي ٩
الرحلة إلى فَازُوغْلِي ١١
سِيد الكلام ٣١
الرسالة ٤٦
الشريف داود ٦٣
السَمَرْقَنْدِي ٩٣
الأرباب ١٠٣
السواكرة ١١٩
سناريات ١٢٧
كاتب الحُجَجْ ١٣٧
السُّلْطَان عَبْد القادر ١٥٢
أجهورية ١٦٣
الأميرة بياكي ١٧٦
عودة الأموات ١٩٢

تقديم لرواية

تشريقة المغربي

الروائي عمر فضل الله ظل في مسيرته الروائية وفياً لقراءته للتاريخ، وإذا كانت مكتبة السرد العربية حافلة بقصص التغريبة (تغريبة بني هلال) فإن عمر اهتم بتشريقة المغربي، ورحلات وهجرات المغاربة إلى المشرق كثيرة، وبالذات إلى السودان.وفي نهجه في كتابة الرواية يحاول الكاتب الجمع بين الحقائق التاريخية، والخيال، ويحاول أن يقدم قراءة مختلفة للتاريخ، وقد تجلّى ذلك في أكثر من عمل روائي سابق لهذه الرواية (تشريقة المغربي).

وقد رأينا شيئاً من ذلك في ترجمان الملك، والتي قدمت رؤية إبداعية لأحداث هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة في القرن السابع الميلادي على عهد الرسول الكريم محمد بن عبدالله ، وفي رواية أنفاس صليحة التي قدمت قراءته لأحداث سوبا عاصمة مملكة علوة المسيحية في السودان في حوالي ١٥٠٤م.

ولعمر فضل الله طريقته الخاصة في استهلال عمله الروائي ، وإدخال القارئ مباشرة في أجواء الرواية { لو زرت سنار يوماً حين نقل مقر الملك إليها وذلك بعد بضعة وعشرين عاماً من خراب سوبا } هو يعرّفك بالمكان وبالزمان، عبر ذكر الأحداث والوقائع التاريخية المهمة. وهو

يمزج حقائق التاريخ بنمو علاقات إنسانية تجمع بين شخوص الرواية وهو يربط بين الأندلس وسنار في أكثر من موضع . فهو حين يتحدث عن المخطوطات وإنشاء مكتبة السلطان، وحكاية جد صليحة عن مكتبات الأندلس (اكتشفت أن الناس هنا شحيحون بالكتب والمخطوطات)

وهذه الرواية تدفع القارئ للاهتمام بالتاريخ السوداني الذي يشكّل مادة خصبة نهل منه الشعراء وأهل المسرح في استلهامهم للفترة السنارية (١٥٠٥ - ١٨٢١) وهذه الفترة لازالت تلقي بظلالهاعلى الإنسان السوداني رغم مرور السنوات.

وقد قامت لجنة التحكيم بمنح الجائزة لهذه الرواية وهي مكونة من البروفسور واسيني الأعرج والبروفسور عبدالرحمن الخانجي، والروائي عيسى الحلو لما رواه فيها من ميزات جعلتها تتفوق على غيرها من الروايات الكبيرة التي شاركت في مسابقة جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي - الدورة الثامنة وإذا نظرنا إلى القول السائد بأن هذا الزمن هو زمن الرواية، فإننا نجد أن الرواية قد حققت هنا قراءة جديدة لعصر قديم، ولجزء من تاريخ السودان لم يتم التنقيب عنه، والاستفادة من وقائعه وأحداثه إبداعياً .. وباختصار يمكن القول أن هذه الرواية تمثل إضافة جديدة إلى المكتبة السردية العربية .

مجذوب عيدروس

الرحلة إلى قَازُوغْلِي

لَوْ زُرْتَ (سِنَّارَ) يوماً، حين نُقِلَ مقرُّ المُلْكِ إليها، وذلك بعد بضع وعشرين عاماً من خَرَابِ (سُوبَا) وإعلان قيام السلطنة، فَلَنْ ترى أعظمَ من مجلسِ السُّلْطَان «عِمَارَة ود عَدْلَان». إذن لَوَجَدْتَه جالساً فوق دَكَّةٍ عالية على (الكَكَر)[1] ذي الأرجل السِّتْ، وقد استوى بِوَقَارِه وسَطْوَتِه على عرشه المَهِيبِ، لابساً (امْ قرين) – طاقيةَ المُلك – تاجاً يُزَيِّنُ رأسَهُ، وعِلْيَةُ القوم قد انتظموا جلوساً حَوْلَه، وِفْقَ رُتَبِهِمْ ومَقَامَاتِهم، مُطرقين رؤوسهم بين يديه، وقد تأخر إلى الخلف قليلاً جِهَةَ اليَسَارِ مُقَدَّمُ القَوَاويد – قائدُ جيش السُّلْطَان – ومُقَدَّمُ الخيل – قائدُ الفُرسَان – ومُقَدَّمُ السَّلْطِيَّة –قائدُ جيش المسلحين بالحِرَاب– ، وانتصب «مالكٌ» سَيِّدُ القوم – متولي تنفيذ طقس الإعدام– واقفاً خلفهم جميعاً بقامته الفارعة وجسده الضخم، ووجهه الذي نسي كيف يكون الابتسام والفرح، متفرساً في وجوه الحاضرين بنظرات صارمة، مثل أسد متأهب للانقضاض على

---

(١) الكَكَرْ: مقعد له ستة أرجل وسطح محدب، يوضع فوق مكان مرتفع (دكة) في مجلس السلطان وله رمزية مهمة لسلطان سِنَّارْ تعادل أهمية الصولجان للملك، فلا يجلس على الككر إلا ملك سِنَّارْ، بينما يجلس بقية ملوك المناطق التابعة لها والشيوخ عند تنصيبهم على "ككر" له أربعة أرجل.

الفرائس، مصيخاً أذنه ناحية السُّلْطَان ينتظر الأوامر. وقد جلس القاضي في الواجهة إلى اليمين قليلاً، وأمامه مجلس الشورى والحكم، والعلماء والشيوخ من كل جِنْسٍ ولونٍ خاضعين بين يديه، ثم رأيتَ شاباً يلبس جَلابَةً مغربيةً مخططةً، وسروالاً فضفاضاً، وقد خلع بُلْغَتَهُ الصَفْراء من قدميه فوضعها تحت مَقْعَدَتِهِ، وجلس عليها متأهباً للكتابة، والريشةُ في يده، والمِحْبَرَةُ عن يمينه، والقراطيسُ عن يساره، وسنحت لك الفرصةُ لتوميءَ له بالتحية، فلا تنسَ أن تُحَيِّيَهُ، فلا ريبَ أن ذلك الشاب هو أنا، محدثُك «عَبْد السَّمِيع بن إبراهيم المغربي» الأندلسي، كاتب حُجَج السُّلْطَان! ولو أومأتَ لي بالتحية خِلسةً لرددتُ عليك بِمِثْلِهَا، أو بِغَمْزَةٍ من عيني خِفْيَةً في حين غَفْلَةٍ من الحضور، فلا أحد يجرؤ على الكلام في حضرة السُّلْطَان إلا بإذنه. وإياك أن تتكلمَ ، أو تهمِسَ لجارك أو تَسْعَلَ أو تَبْصُقَ على الأرض أو تَعْطِسَ، فَبَلاطُ السُّلْطَان «عِمَارَة دُونْقُس» لا تُسْمَعُ فيه الأصوات، فلو طارت ذبابةٌ لَسَمِعَهَا أهلُ ذلك المجلس. ها قد نبهتُكَ فتَذَكَّرْ.

كان هذا بعد ما انتقل مقرُّ السَّلْطَنَة إلى سِنَّارْ، بعد سنوات من أول لقاء لي بالسُّلْطَان في منطقة (فَازُوغْلي). وربما أحكي لك عن ذلك إن اتسع صدرك وطاب لك حديثي. لكن دعني أحدثُكَ عني الآن قليلاً، فقد جئت إلى هذه البلاد عابراً أول مرة منذ أعوام عديدة، في صحبة

الحاج «عَبْد الحميد اللَّقَّانِي» الأندلسي. جئنا من بلاد المغرب قاصدين الحج، وبعد أن أدينا الفريضة عَلِمْنَا بِخَرَابِ (سُوبَا) وسُقُوطِ دولة (عَلَوَة)، وكان ذلك بعد ما عبرنا البحر عائدَيْن من الحجاز. ولما كان سكان (سُوبَا) قد هجروها وغادروا بيوتهم ثم لم يعودوا إليها أبداً بعد أن دمرها عرب القَوَاسْمَة جنودُ القريناتي، فقد آثرت البقاء حول خرائبها عسى أن أجد مأوى قائماً على أصوله، أو بيتاً تركه أهله. لم أكُنْ أملكُ بيتاً ولا ثمن بيت، لكن الناس الذين حولَ (سُوبَا) نصحوني بالهجرة شرقاً، فالباديةُ بِهَا بعضُ أَرْضٍ مُشَاعَةٍ لا يَمْلِكُها أحد. وَحَذَّرُونِي من الاقتراب من أرض النُّوبَة، فهم لن يتركوا مزارعهم وأملاكهم جوار بحر العاديك - (بحر سُوبَا) - ولن يتخلوا عنها مهما حدث، فلا بد أن يعودوا إليها يوماً، حتى بعد أن خربها القواسمة، أو استولى عليها السُّلْطَان «عِمَارَة» فوزعها على الملوك والحكام والشيوخ والقَوَاوِيدْ. ولذا فلا فائدة من تضييع وقتي في بناء بيت هناك. وبذلك انتصحتُ بِنُصْحِهِم فنزحتُ إلى جهة (عَلْوَان) - وهي نحو من نصف مَرْحَلَةٍ إلى الشرق من خرائب (سُوبَا) - فاتخذتُ فيها بِضْعَ غُنَيْمَاتٍ أستولدها لتتكاثر، وشُوَيْهَاتٍ أرعاها لأشربَ من لَبَنِهَا وأقتاتَ بلحمها. أما الحاج «عَبْد الحميد»، فكان قد فارقني عائداً إلى المغرب حيث حفيدته «صُلَيْحَة»، التي خَلَّفَهَا هناك عندما أتي للحج، وهو يعلم أنه لم يبق لها في الحياة إلا هو، فقد هلك أبواها في الوباء الذي وقع في بلاد المغرب. وكان قد حدثني عنها

كثيراً حين كنا معاً. لكن يشاء الله أن يعود «اللَّقَّانِي» كَرَّةً أخرى إلى بلاد النوبة والمحس، وقد أصبحتُ صِهْرَهُ وزوجاً لحفيدته «صُلَيْحَة»، بعد أن بحثتُ عنها أنا الآخر لِمَا سَمِعْتُهُ من ثناء جدها عليها فاتخذتها زوجة لي، وأحببتها حباً لا يدانيه حب.

هي قصة طويلة سوف أحكيها لك إن سنحت سانحة، لكني سأحكي لك الآن عني، وكيف صرتُ كاتبَ حُجَج السُّلْطَان «عِمَارَة ود عدلان»، وعن قصة هذه البلاد وما رأيناه فيها أنا وزوجتي «صُلَيْحَة»، بعد أن استقر بنا المقام في بادية البُطَانَة شرق (بحر سُوبَا)، ثم بعد ما جاء الجنود فأخذوني في ذلك اليوم بأمر من السُّلْطَان، وتَخَلَّفَتْ هي لتبقى مع جدها الحاج «عَبْد الحميد اللَّقَّانِي» في تلك البقعة من أرض البطانة، ريثما يستبين سبيلي وتُعْرَف قِبْلَتِي ووجهتي.

كنت خائفاً من مصيري لما جاء أولئك الجنود ليأخذوني، فلم أكن أعرف سبباً للقبض عليَّ ولا من دَلَّـهُمْ على مكاني، ولم أكد أعلم إذ ذاك عن هذه الدولة الوليدة إلا القليل، فقد وَفَدْتُ إليها بعد عام من خراب (سُوبَا) وذهاب دولة (عَلَوَة). لكني سرعان ما أصبحت أعمل بعد ذلك كاتب حُجَج السُّلْطَان «عِمَارَة ود عدلان». ذلك أنه هو وحده من يملك الأطيان في هذه الدولة، يهبها لمن يشاء بإصدار الحُجَج المُلُوكية التي يشهد عليها الشهود من عِلْيَةِ القوم، مثل (مُقَدَّم السَّوَاكرة) – المشرف على تنشئة أبناء السُّلْطَان، وتربية القواويد أبناء الحكام –، أو (سِيد القُوم) – سياف

الملك وكاتم أسراره -، أو (الجرَّاي) - جامع الضرائب - ويحتاجون للكاتب الذي ينسخ هذه الحُجَج. كان السُّلْطَان يأمرني بكتابة حُجَّة تمليك الأطيان ثم يختم الشهود بأختامهم، بعد أن أَمْهَرَ أنا «عَبْد السَّمِيع المغربي» اسمي عليها، باعتباري كاتب الحجة! وإذا لم يَرَ السُّلْطَان اسمي وخطي وشهادة هؤلاء الشهود على تلك الوثيقة فإنه لا يضع ختمه عليها أبداً ولن تصبح حجة.

الكتابة والقراءة نادرتان بين رجال البلاط السُّلْطَاني، وكذا في كثير من بقاع السلطنة، فالنبلاء والحكام والشيوخ وعلية القوم لا يكتبون العربية لكنهم يفهمونها ويتحدثونها. ولذا فقد اشتهرت بكوني كاتب حُجَج السُّلْطَان رغم حَدَاثَةِ سني بالنظر لبقية عُمَّال السُّلْطَان ورجال البَلاط. لا أتخلف عن جولاته أو مجلسه إلا بإذن منه. ثم إنه كلفني بشئونٍ أخرى، ومنها إنشاء مكتبة السُّلْطَان، وتعليم القواويد وأبناء السُّلْطَان وأبناء الحكام القراءة والكتابة. ثم وقعت أحداث سوف أحكي لك عنها.

***

كنت قد فقدت الأب والأم في الوباء الذي ضرب بلاد المغرب، قبل مجيئي إلى هذه البلاد، فلم يبق لي قريب ولا أهل هناك، بعد أن قُتِلَ معظم أهل أبي وأهل أمي في الأندلس، قتلهم النصارى الذين غزوا تلك البلاد بعد أن استولوا عليها وأسروا كثيرين. كنا أسرة واحدة نعيش في

بيت واحد، أنا وأبي «إبراهيم»، وعمي «شمس الدين»، وأمي «فاطمة» وخالتي «أنيسة». هذا هو كل ما أعرفه عنهم. وكنت صغيراً حين هاجر والداي فراراً إلى المغرب الإفريقي فيمن فرَّ من أهل الأندلس فعبرا المضيق جنوباً، في مركب صغير، عند مطاردة القشتاليين لهم. كنت صغيراً لكني أذكر ذلك اليوم حين تمكن أبي وأمي من دخول المركب، وكانت خالتي تحملني في يديها لتهرب بي إلى ذلك المركب، ولكنها قبل أن تصل وحين أوشك القشتاليون أن يدركوها وخشيت أن يأخذوني منها ناولتني لأمي، التي أسرعت فلحقت بأبي ركضاً ودخلت بي معه في ذلك المركب، فتمكن ثلاثتنا من الهرب. وهكذا نجونا بينما قبضوا على عمي وخالتي أسيرين.

وبعدما عبرنا إلى المغرب العربي وجدنا أن الوباء قد سبقنا فانتشر هناك، وأصيب أبي وأمي بذلك المرض. ولما تمكن منهما وأيقنا بمصيرهما تركاني عند باب أحد المساجد حتى لا أصاب بالعدوى، وليأخذني أحد المحسنين عنده بعد موتهما الذي وقع وشيكاً بعد إصابتهما بذلك الوباء الفتاك. بيد أنه لم يأخذني أي إنسان إذ ذاك، ولم يعتن بي بَشَرٌ بعد أبي وأمي، فلم يبق لي أحد بعد أن أسر القشتاليون عمي وخالتي، فبقيت هائماً في الطرقات حتى كبرت. الناس كانوا يخافون من العدوى بالمرض الخبيث، فقد هلك كثيرون. ومن بقي حياً خاف على نفسه الموت جوعاً. لذا نشأتُ يتيماً وحيداً، أتسول فضلات الطعام وبقايا الملابس عند أبواب

المحسنين. وعند مجيء الليل أنام في العراء. يضربني برد الشتاء، أوتلفحني سَمُوم الصيف، وتهطُل الأمطار فوق رأسي فتبلل أَسْمَالِيَ البالية. وفي بعض الأحيان أكسب اللقمة من عمل يدي برعي الغنم وحلبها لأهل القرى، أو بمساعدة المزارعين في نظافة الحقول، وجَزِّ العشب الطفيلي. وكنت ألبس مما يتصدق به المحسنون. وقد حذرني البعض من نزع ثياب الأطفال الموتى من أجسادهم، ففيها يكْمُنُ الداءُ المميت. وقالوا إن أطفال كثيرين ماتوا جَرَّاءَ ذلك بعدما لَمَسُوا جثث رُصَفَائِهِم الموتى، الذين لم يكترث أحد لدفنهم، أو الاقتراب منهم، خشية أن يصاب بالداء القاتل، فبقيتْ جِيَفُهُمْ متناثرة في الطرقات يعافها الناس، ويَسُدُّون أنوفهم بأصابعهم من نَتَنِها، ويسرعون الخطى حين يمرون بها، فتبقى ملقاةً هناك على قارعة الطريق، أو تأكلها الكلاب فيصيبها السُّعَار. وقليل من الناس من يقبل المخاطرة بحياته فيكلف نفسه عناء دفنها وسَتْرِهَا.

ظل الحال بي كذلك حتى بلغتُ السابعة عشر. لم أذهب إلى المَحْظَرَة، ولم أتعلم القراءة والكتابة حتى قررتُ الذهاب للحج، ثم النزوح إلى هذه البلاد. وفي الطريق عَلَّمَنِي الحاج «عَبْد الحَمِيد اللَّقَّانِي» القراءة، ثم لما وصلنا مكة علمني النسخ والكتابة حين كنا ننتظر موسم الحج. وبعدما عدنا من الحج، وعبرنا البحر غرباً قررت البقاء في بلاد النوبة والعنج، حيث الخير الوفير والمال الكثير، لأبدأ حياة جديدة بعيدة عن الأوبئة والحروب. وكنت قد سمعت الحكايات التي يقصها من جاء إلى هذه

البلاد، وأن من يذهب عبرها إلى الحج، أو يشرب من أنهارها، لابد أن يعود فيستقر فيها، ويلقي عصا الترحال. فهي بلاد واسعة خضراء ممتدة، وأرضها منبسطة، تشقها الأنهار وتجري في أوديتها المياه، وينبت الزرع في أرضها وَحْشِيّاً بلا مزارعين، وتمتلىء باديتها بالصيد الوفير ذي اللحم الكثير. وكنت أحلم ببلاد مثل الجنة تعوضني نار الحرمان والبؤس والشقاء، بعد فقدان أمي وأبي. وسمعت كذلك أن النيل هو من أنهار الجنة، فلما علمت إذ ذاك بأمر القافلة المتوجهة إلى الحج، قررت أن أجمع بين الحج والهجرة، فالحج عبادة، والهجرة حياة جديدة، خاصة وأنه لم يبق لي أهل أو أقارب في بلاد المغرب.

كنت مشتاقاً أن أرى النيل وأشرب من مائه، فما زلت في مقتبل العمر وفورة الصبا. يملؤني الطموح، ويفيض عقلي بالأحلام والأماني الجميلة. ويوم نويت الحج لم أكن أملك إلا أقل من القليل من المال، فاتفقت مع قائد القافلة أن أخدمه والمسافرين معه طول مدة الرحلة، مقابل اصطحابي معه. فلما نظر أني نشأت يتيماً وافق، بعد أن تأكد أنني معافى وخالٍ من ذلك الوباء الفتاك.

في الطريق بقيت أرافق الحاج «عَبْد الحَمِيد» كلما حطت القافلة رحالها لتستريح. قرأت الصلاح على وجهه رغم أنه كان يفيض بالأحزان. بقيت إلى جواره لا أَمَلُّ من خدمته، ولا أشبع من الكلام معه. ولاحظت أنه كان شديد العناية بمخطوطة يقرأ منها في معظم الأوقات، ويضعها على

صدره حين ينام، ويستيقظ وهي على صدره، لا تسقط حتى وهو نائم. وإذا عبثت بها الريح وضع يده فوقها حرصاً عليها. وعندما أدركت حبه لتلك المخطوطة، بقيت رقيباً عليها، رغم أنّي لم أكن أعرف القراءة ولا الكتابة لمَّا صحبته، وكنت أتمنى لو أستطيع أن أقرأ منها مثلما كان يقرأ. ولما رأى حرصي علمني القراءة. وحين تمكنت أخيراً من تلك المخطوطة عرفت أنها رسالة في الصلاة على النبي، اسمها (دلائل الخيرات) للجُزُولِي، فقرأتها مراراً وتكراراً حتى حفظتها. وعلمت بعد ذلك أنه كان حرِيصاً عليها، لكونها هدية من مؤلفها الشيخ الجزولي نفسه بخط يده، للحاج «عَبْد الحميد اللَّقَّانِي».

ثم افترقنا يوم هاجَمَنَا قطاعُ الطرق، واضطررتُ للفرار من القافلة لأنجو بحياتي. لأنهم كانوا سيبيعونني رقيقاً لو ظفروا بي، لكنهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك مع «اللقّاني»، فهو طاعن في السن، ولا يصلح للاسترقاق والعبودية. ثم واصلتُ الرحلة سيراً في الطريق إلى مكة. وبعدما عبرتُ البحر ووصلتُ البيت الحرام، رأيته يطوف بالكعبة، فأسرعت إليه وأمسكت بثوبه حتى لا يضيعَ مني. ثم لَزِمْتُهُ وبقيتُ معه ننتظرُ الحج. وهناك عَلَّمَنِي الكتابة والخط، وبعضَ سور القرآن وفقه مالك، ثم أكملنا الحج والرحلة معاً.

سوف أحكي لك كيف جاء الجنود وأخذوني إلى مدينة السُّلْطَان. فقد أخبرني الأطفال الذين كانوا يلعبون في الطريق في ذلك الصباح، أن الجنود

يبحثون عني، ويسألون كل من يقابلونه. وتوجستُ شرّاً عندما خرجتُ فَشَاهَدْتُهُمْ مُدَجَّجِينَ بالسُّيوفِ والحِرَاب. تقدم قائدهم ناحيتي فحياني بكل احترام، وسألني عن اسمي أكثر من مرة، قبل أن يخبرني بالهدف من بحثهم عني. توقعت حين أخبره باسمي في المرة الثانية، أن يَسْتَلَّ سيفه فيضربَ به عنقي، رغم أنه كان هادئاً ولم يبدُ ذلك منه. لكني ترددت في الإجابة حين كرر السؤال، وكنت أنظر إلى السيف المعلق بحمائله على كتفه. كنت خائفاً ومتوجساً، وتصبب العرق من جبيني، رغم قناعتي أني لم أرتكب أي جرم يستوجب عقوبة الموت، ولا أَقَلَّ منها. لكنه بعد أن تأكد من اسمي مد يده مبتسماً، وصافحني بحرارة، فقد وجد ضالته التي جاء يبحث عنها. قال لي:

– ما دام اسمُكَ «عَبْد السَّمِيع» فأنت مطلوبٌ في مجلس مولانا السُّلْطَان.

قلت له: السُّلْطَان من؟ فضحك ولم يجبني. ولما لاحظ القلق والخوف باديين في وجهي هَدَّأَ من رَوْعِي قليلاً، وفهمت منه أنه لو لا أن السُّلْطَان يريدني لخير ما أمرهم أن يترفقوا بي. قال هذا ثم لم يزد عليه شيئاً، وتركني في حيرتي!

علمت بعد ذلك أنه كانت لديهم أوامر واضحة ينفذونها. ستجدون شاباً مغربياً في مكانِ كَذَا، ببادية البُطَانَة، إلى الشرق من خرائب (سُوبَا)،

اسمُهُ «عَبْد السَّمِيع»، وهو صهر الحاج «عَبْد الحميد اللَّقَّاني» الأندلسي، فأحضروه إلى مجلس السُّلْطَان «عِمَارَة دونقس». لم أعلم كيف علم بي، أو ما يريده مني، وكيف عرف أنني صهر الحاج «عَبْد الحميد». لابد أنه أصبح معروفاً هنا. أو ربما وشى بي عنده بعض سكان المنطقة، فأنا مغاربي الأصل، ولست من مواليد هذه البلاد. لكن ما هو سببُ الوشاية، فلم أرتكب أي عمل يستوجب القبض عليَّ، ناهيك عن أخذي إلى مجلس السُّلْطَان. وقد بقيت هنا سنوات في البادية منقطعاً عن الناس، إلا من «صُلَيْحَة» زوجتي، وجدِّهَا، حتى جاء هؤلاء الجنود.

لكني ما زلت غير مصدق أنهم ليسوا لصوصاً أو تجار رقيق، فقد رأيت بعيني مثل هذا حين كنا في رحلة الحج من المغرب منذ سنوات، وكيف هجم قطاع الطريق على قافلتنا. وكيف فررتُ منهم لأنجو بجلدي. وقَدَّرْتُ أن هؤلاء هم مثلهم، فما أن ينفردوا بي في الخلاء، حتى يجردوني من ثيابي، فيأخذونها أو يبيعوني عَبْداً، فهذه البلاد مازالت غير آمنة، حتى بعد مضي سنوات على سقوط (عَلَوَة) وخراب (سُوبَا)، وتَفَرُّقِ أهلها في البلاد. فقد سمعت أن القواسمة بدأوا يقبضون على بقايا سكان (سُوبَا) الفارين، فيبيعونهم عبيداً في سوق الرقيق في (شندي)، انتقاماً للقواسمة الذين غدر بهم ملك علوة، فباعهم للمماليك رقيقاً. وتساءلتُ لو كان هؤلاء هم حقاً جنود السُّلْطَان «عِمَارَة»، وأرسلهم بنفسه، فلماذا لم يأمرهم بتخصيص دابة مناسبة لي؟ ربما لم يهتم بالتفاصيل، وهم لم يهتموا،

فتصرفوا وفق فهمهم ولم يجتهدوا. أو ربما كانوا على عجلة من أمرهم. لكني اطمأننت قليلاً عندما أمهلني قائدهم «شَاوِرْ» حتى أخبر «صُلَيْحَة» بوجهتي، فلم يكن صهري الحاج «عَبْد الحميد» حاضراً معنا في ذلك اليوم، فطلبت منها أن تبلغه، ثم ودعتها وتبعت الجنود ماشياً حيناً، وعلى ظهر حمار أحياناً أخرى. وكنت مستعداً لقطع المسافات مشياً، فقد كنت شاباً في أوج قوتي، وعنفوان فتوتي. لكن الجنود تناوبوا في التنازل لي عن دوابهم أثناء الرحلة، فَسِرْنَا أياماً قبل أن نصل إلى وجهتنا.

في الطريق لاحظت أن القائد «شَاوِرْ» كان هو المسلم الوحيد بين أولئك الجنود، أو كان هو الوحيد الذي يصلي من بينهم جميعاً. فعند توقفنا للصلاة يصلي وحده، وأصلي وحدي، ولا يأتمّ بصلاتي، ولا يأتي للصلاة معي، بينما يجلس الجنود ناحية يراقبوننا. وعلمت أن بعضهم وثنيون، وآخرين لا دين لهم، أو لا يعرفون ما هو الدين أصلاً. اكتشفت أن القائد «شَاوِرْ» يحرص على الصلاة في وقتها، لكنه لا يعرف القراءة ولا يحفظ أي شيء من القرآن. أرهفتُ سمعي مرة أستمع لقراءته في الصلاة الجهرية، فسمعته يقول بعد تكبيرة الإحرام:

- (الصَّلَا صَلَاتَكْ والوَطَا وَطَاتَكْ. نَقَعْ وُنْقُومْ عَلَى انْجِلَّاتَكْ). الله أكبر!

ثم ركع دون أن يقرأ أي قرآن. وفهمت من همهماته ودندنته أنه يخاطب الله عز وجل، فيقول الصلاة لك يا الله، والأرض أرضك، وأنا أقوم وأقع

تمجيداً وإجلالاً لك. ضحكت سراً رغم خوفي وتَوَجُّسي، لكني قررت أن أعلمه قراءة الفاتحة. لم أُعَلِّمْ أحداً قبل ذلك، لكني وجَدت الأمر سهلاً حين أخبرته، فوافق على استحياء، شرط ألا يعرف بقية جنوده الذين معنا بهذا الأمر، وأن يبقى سراً بيني وبينه، فقبلتُ شَرْطَهُ.

وسألته لماذا لم يأتم بصلاتي وبقي يصلي وحده، فأخبرني أنه عندما أمروه بإحضار «عَبْد السَّمِيع المغربي» لم يشك وقتها أنه سيقابل مسلماً، لكنه لما رآني دُهِشَ، إذ فوجئ بأن لون بشرتي مختلف عما اعتاد أن يراه هنا من ألوان المسلمين طول عمره، فأيقن أني (خواجة) نصراني، فقد رأى (خواجات) نصارى يسافرون في هذه المناطق. لكنه تعجب حين رآني أصلي مثل صلاة المسلمين، فظن أني دِرْوِيش نصارى!

قلت له: (خواجة)؟ ما معناها؟ فقال معناها تاجر!

قلت له: الله يهديك! (خواجة) نصراني واسمه «عَبْد السَّمِيع»؟ فابتسم ولم يرد. لكنه أردفني خلفه فوق ظهر الحمار، فبقيت أقرأ له الفاتحة بصوت خافت يصل أذنه، ولا يسمعه من معنا في الركب، وهو يردد الآية بعد الآية. وبعدما كررتها عدداً من المرات التقط كلماتها وحفظها، فقد كان حاد الذكاء. وبعد أن قرأها عليَّ وأخبرته أنه قرأها بطريقة صحيحة فرح فرحاً عظيماً، فكافأني بدجاجةٍ بَرِّيَّةٍ كاملة، كان قد طاردها بنفسه واصطادها ذلك الصباح. أوقد النار بنفسه وشواها لي وحدي، وحرص ألا يشاركني في تناولها أي من الجنود، رغم أنها كانت كبيرة الحجم، كثيفة

اللحم، تكفيني وتكفي آخر معي. في الطريق لاحظت أنهم يتعاطون التبغ والتُّنْبَاك، ويحدثون بعضهم بلغة غريبة مختلفة لم أفهمها، رغم أنها عربية، لكن بها كثير من المفردات غير العربية. قال لي القائد «شَاوِرْ» إنهم يتحدثون لغة البَرْتَا – وهي قبيلة مشهورة في منطقتهم- كانوا يتحدثون بها بسرعة فائقة. والعجيب هو أنه يفهم بعضهم بعضاً. لكنهم كانوا مع ذلك يفهمون العربية جيداً حين أحدثهم.

وعند توقفنا للاستراحة يوقدون النار ليطبخوا بَلِيلَة الذُّرَةِ، أو اللُّوبِيَاء. ولاحظت أنهم إذا طبخوا الذُّرَةَ يوماً، يطبخون تلك الأخرى في اليوم التالي. يضعونها في قِدْرٍ ويملؤونه ماء، فيغلي حتى تنضج، بعد أن يضيفوا إليها الملح والبصل، وقليلاً من التوابل، أو بذور الأعشاب البرية المنتشرة في الأنحاء، لتضفي على الطعام نكهة ورائحة. ثم اصطادوا غزالاً فأكلوا أمعاءه نيئة. أخذوا الكرش والكبد والرئتين والكليتين، فغسلوها جيداً، ثم أضافوا إليها بصلاً وملحاً. وسألتهم ما هذا الذي تصنعونه فأجابوني دون اكتراث:

- مرارة. مرارة!

أرعبني هذا. أكلوها بنهم شديد. أي والله! أكلوا الأمعاء نيئة مع كثير من البصل، والفلفل الحار والليمون والملح، ثم شووا اللحم وأكلوه، وكانوا مبتهجين. بعدما رأيت صنيعهم هذا بعيني أيقنت أنهم من آكلي

لحوم البشر، فبقيت مستيقظاً قلقاً تلك الليلة، ولم أنم من الخوف. وكانت الهواجس تنتابني، فدعوت الله ألا يصيبهم القَرَمُ لِلَحْمِيَ. وكان معهم شراب قالوا لي اسمه (المَرِيسَةُ). رأيته مرة عند العَنَج أو المَحَس الذين كانوا منتشرين حول خرائب (سُوبَا)، وكان شراباً مختمراً ذا رائحة نفاذة، قالوا لي إنهم يصنعونه من نقيع الذُّرَةِ البَيْضَاء (القَصَّابِي)، يحملونه في قربة مصنوعة من جلد الماعز. وكلما نزلوا للاستراحة سكبوا منه وشربوا، ويبدو أنه مسكر بعض الشيء، لأنهم بعد أن يشربوه سرعان ما ينامون نوماً عميقاً. وعجبت حين سكبوا منه في إناء من القرع المجفف، حتى أَزْبَدَ وصارت له رَغْوَة، ثم ناولوني القَرْعَة لأشرب من تلك (المَرِيسَة)، فدفعتُهَا بيدي مشمئزاً لأبعدها عني، فقد عافتها نفسي، ورغم ذلك لم أسلم من رائحتها الكريهة. ولما رأى القائد «شَاوِرْ» ردة فعلي ضحك ضحكة خبيثة، ولم يتكلم ثم تناول تلك القرعة فشربها كلها، حتى رَسَمَتْ شارباً من الزَّبَد حول شفتيه، ثم طلب المزيد فسكبوا له مرة أخرى، فشربه حتى كَرَعَ بصوت عال، ثم أدار لي ظهره وتَوَسَّدَ ذراعه، وما هو إلا قليل حتى سمعت غَطِيطَهُ.

عندما مررنا بإحدى القرى وقت المغيب أوقفني لصلاة المغرب، وتعمد أن يتقدمني ليصلي بي إماماً وهو سكران. قرأ فاتحة الكتاب بصوت عالٍ، وبعد أن أكملها سكت متحيراً، فهو لا يحفظ غيرها. كنت أعرف هذا فبقيت أنتظر متعجباً كيف سيتصرف. لكنه قرأ كلاماً غير

مفهوم. قاله بسرعة فائقة، فلم أتبين حروفه وكلماته، ثم ركع وأكمل الصلاة. بعض سكان القرية من الذين دفعهم الفضول لمشاهدة الجنود سمعوا القراءة فاقتربوا يستمعون. وكان واضحاً أن القائد «شَاوِرْ» يريد أن يوهمهم أنه يعرف قراءة القرآن.

بعد أن أكمل الصلاة جاءت بعض النسوة فَقَبَّلْنَ يده وتبركن به، رغم أن رائحة (المَرِيسَة) المختمرة تفوح من فمه. الناس هنا يحبون المسلمين، ويعجبهم مشهد أداء الصلاة، لكن كان واضحاً أنهم لا يعرفون عن الإسلام شيئاً. في تلك الليلة بقي القائد «شَاوِرْ» مزهواً لأنه صلى بي إماماً، فعاملني بلطف زائد. وعندما جلسنا وحدنا أخبرته بأني سوف أعلمه سورة قصيرة من القرآن يقرأُها بعد الفاتحة. ولم أخبره أني علمت أنه كان يوهم الناس في صلاة المغرب بأنه يقرأ قرآناً بعد سورة الفاتحة، ولكنه في حقيقة الأمر قال كلاماً ليس بقرآن. ابتسم ابتسامة خجولة، فقد أدرك أني كشفتُ سرَّهُ، ثم وافق على الفور أن أعلمه القراءة في اليوم التالي حين يُرْدِفُنِي خلفَه، فقد كان يرغب في النوم تلك الليلة. وفهمتُ أنه يريد أن نمضيَ الوقت معاً ونحن على الطريق، فنقطعه بالتعليم والتعلم. لم يفهم الجنود سر الصداقة المفاجئة بيني وبين قائدهم «شَاوِرْ»، الذي منعهم من التنازل لي عن حميرهم، ثم أردفني خلفه فوق حماره، وبقينا نتحدث سراً طوال الطريق. لكنهم سكتوا ولم يسألوا. اقترب بعضهم مرة بدافع الفضول ليسمع الحوار، لكن القائد «شَاوِرْ» زجره غاضباً، فابتعد، وفهم بقية الجنود الرسالة.

قلت له:

- سوف أعلمك سورة قصيرة من القرآن، واسمها الكوثر. اسمع يا «شَاوِرْ»: (إنا أعطيناك الكوثر.).

لم يكن منتبهاً في البداية، لكنه بمجرد أن سمع كلمة (كوثر) قاطعني بالضحك قبل أن أكمل السورة. ضحك ضحكاً شديداً حتى كاد يقع من السرج. كنت أحس باهتزاز بدنه كله، وارتجاج بطنه الضخم من الضحك، ونحن على ظهر ذلك الحمار المسكين. استمر في الضحك فشاركته بابتسامة عريضة، لكني سرعان ما بدأت أضحك مقهقهاً مثله، بالرغم مني مع أني لم أفهم ما الذي أضحكه أصلاً. وبعد أن سكت قليلاً وتمالك نفسه سألته متحيراً:

- ما الذي أضحكك يا «شَاوِرْ»؟

أخذ يضحك مرة أخرى، ثم قال وهو مستمر في الضحك حتى نزلت دموعه من عينيه:

- يامغربي علمني سورة غير هذه!

- لماذا يا «شَاوِرْ»؟

- عمي «فِضَيْل» أعطاني «كوثر»، وليس أنت يا مغربي. وأنا صليت قبل «كوثر» ذاتها!

- ماذا تقصد؟ حقاً لم أفهم!

- أنت تقول أعطيناك «كوثر»، وأنا عرفت الصلاة قبل أَعَرِّسْ «كوثر». وتقول مَرَتِي (امرأتي) قصيرة؟ وين شُفْتَهَا يا مغربي؟

ثم أخذ يكلم نفسه مغتاظاً وسط دهشتي وتعجبي:

- (أعطيناك كوثر! أعطيناك كوثر)! حتى «كوثر» مذكورة في كلام الله. "دَا كَلَامْ عَجِيبْ يَا ااخِيْ"!

ضحكتُ حين فهمت قصده. ضحكت حتى أوجعني بطني. ثم علمته سورة الإخلاص، لكني لم أذكر له اسمها، حتى لا يظن أنها اسم لامرأة أخرى تدعى «إخلاص»! ومن يدري فربما تكون له زوجة أخرى اسمها «إخلاص» فتقع الطامة. لكن بعد ذلك عندما قلت له سوف أعلمك التشهد عند الجلوس للصلاة تجاهلني تماماً، ومضى وتركني وكأنني أخاطب شخصاً آخر غيره.

أربعة أيام بلياليها ونحن نسير في الأحراش، نخوض الطين والوحل. الأمطار تهطل في هذه المنطقة بغزارة، والحشائش تملأ الطريق، حتى أننا سرنا بصعوبة وتُهْنَا عن الطريق مرة، فقد كنا نسير في الظلام. أخبرني القائد «شَاوِرْ» أننا نوشك أن نصل المدينة، فنحن الآن في منطقة فَازُوغْلِي. لكني لم أر غير بيوت الطين والجالوص المسقوف بالقش متناثرة أمامنا، وفي باحاتها تقف النساء عاريات الأبدان، حافيات الرؤوس والأقدام، وأرجلهن ملطخة بالأوحال. نساء هذه المنطقة لا يغطين صدورهن، ولا يسترن أثداءهن، بينما يزخرفن أكتافهن العارية وأذرعهن بالوشم، ويرسمن على الصدور والجذوع، ولا يلبسن حول وسطهن إلا خرقاً بالية، وأسمالاً متسخة. وبعضهن من صغيرات السن لا يلبسن شيئاً،

لا أسمال ولا غيرها، بينما الأطفال حولهن يلعبون عراة في بِرَكِ الأمطار والطين والأوحال. الناس كانوا ينظرون إلينا بفضول، فواضح أنهم غير معتادين على لون بشرتي البيضاء في هذه البقاع، وبعضهم ظن أنني من الرحالة النصارى أو من (الخواجات) فعلاً، لكنهم لم يروا معي بضائع وأحمالاً، مثلما يفعل الخواجات في هذه البقاع. وعجبوا أكثر لما رأوني أصلي صلاة المسلمين، ولم يجرؤوا على السؤال، لكن أعينهم ونظراتهم كانت تقول كلاماً كثيراً. لاحظت أن أهل هذه البلدة يكتنفهم الفضول لكنهم ممتلئون براءة وبساطة.

سألت القائد «شَاوِرْ» عن اسم هذه المنطقة، فأخبرني أنها منطقة شعب الإنقسنا وبني شنقول، ومعظم السكان هنا هم من الفُونْج. أما المدينة فاسمها (أُولُو)، وآخرون يطلقون عليها (لُولُو) أو(لُولْ)، كلٌ حَسْبَ لِسَانِه، ينطقونها فيفخمون اللام ويضخمونها. وفور وصولنا إلى حي (لامُولْ) في أطراف المدينة أخذني إلى أحد الأكواخ، فعلمت أنه سيكون مقر إقامتي وسكني. كان ذلك الكوخ عبارة عن بناء دائري، جداره مبني من الطين والجالوص، وسقفه من السَّعْفِ والقَشِّ، وقد جهزوه بأثاثٍ فيه سرير (عَنْقَرِيب)، منسوج من الحبال، ومفروش بجلد البقر. وبجانبه (بَنْبَر) للجلوس، وبُرُوشٌ من سَعْفِ الدَّوْم، و(تَبَرُوكَة) صغيرة تُفْرَشُ على الأرض للصلاة، وفَرْوَة من جلد الضأن للصلاة كذلك، علقوها على عمود وسط البيت. وعلى الأرض (رِكْوَة) للوضوء مصنوعة من الجلد،

وهي أكبر قليلاً من إبريق الطين. ومسبحة منظومة حباتها من (اللَّالُوب) ثمرة شجر الإِهْلِيلَجْ، و(زِيرْ) لماء الشرب، و(سَحَّارة) لحفظ ملابسي، رغم أنه لم يكن عندي منها إلا القليل الذي حملته معي على عجالة، يوم جاءوا وأخذوني. كما جلبوا لي من السوق بعض أواني الطعام والشراب، فقد منحوني (عَماراً) للحليب، وهو إناء مصنوع من عروق الشجر، أو عُرْجُون النخيل، أو السعف و(الخَنْقُوق). حين رأيت الإناء للمرة الأولى سألت القائد «شَاوِرْ» عنه، فأخبرني أنهم يطلقون عليه (عَمْرَة سِقَاية)، يغطونه بطبق، ويجلبون فيه اللبن الحليب. وهو مِعْيَارٌ لِكَيْلِ السوائل والحبوب، فيمنحونك (عَمْرَة) لَبَنٍ أو رَوْبٍ، مقابل (عَمْرَة) مملوءة ذُرَةً، أو سِمْسِماً، أو دُخْنَاً، وذلك وفق نظام البيع بالبدل. فالناس هنا لا يعرفون النقود إلا فيما ندر. كان ذلك الإناء ممتلئاً لبناً مغلياً على النار. تغافلتُ عنه حتى أصبح دافئاً، ثم شربته كله قبل النوم. وكنت مرهقاً، فاستلقيت على ظهري في ذلك الكوخ بثياب السفر، وسرعان ما نمت نوماً عميقاً.

***

سِيد الكلام

أيقظني صياحُ الديوك وأصوات العصافير في صباح اليوم التالي، فبقيت مستلقياً على فراشي. لكن جَلَبَةً وأصواتاً غير ذلك هي التي دفعتني للنظر خارج الكوخ. كان الوقت باكراً، فخرجت لأنظر قبل أن أتهيأ لصلاة الفجر. لاحظت أن أهل هذا الحي يستيقظون مبكرين. كان باعة اللبن يتجولون على ظهور الحمير يبدلون اللبن بالذرة البيضاء، وبعض النساء يحملن آنية الماء فوق رؤوسهن، وقد جلبنها من البئر.

بعد ما قضيت حاجتي، وعدت إلى الكوخ لأتوضأ، وجدت صبية سوداء في الخامسة عشر من عمرها، واقفة أمام مدخل الكوخ. لم تكن تلبس سوى (الرَّحَط) المصنوع من شرائط وسيور جلدية رفيعة، امتدت من خصرها لتنتهي تحت ركبتيها. كانت حافية القدمين وشعر رأسها محلوقاً تماماً مثلما يفعل الرجال. وقد تركت صدرها الأبنوسي عارياً تماماً، فلم تغطه بشيء. نساء هذه المنطقة لا يغطين صدورهن، ولا يتحرجن من هذا الأمر، ولا يرين في ذلك أي عيب أو خطأ، والناس اعتادوا على هذا. رمقتني بنظرةٍ خاطفةٍ، ثم نظرتْ إلى الأرض في خضوع. كان القائد «شَاوِرْ» داخل الكوخ، ولما سمع صوتي جاء خارجاً ليخبرني أن هذه الفتاة ستقوم بخدمتي إن احتجت لأي شيء، وأنها ستصنع لي طعامي،

وتغسل ثيابي، وتَقُمُّ الكوخ، وتَحْتَطِبْ، وتحضر الماء، وتجلب اللحمَ والخُضَرْ. ولم أكن مستعداً لهذا، ولا أملك مالاً، فسألته بعفوية ساذجة:

- كم أجرتها؟

ابتسم ابتسامة ساخرة، فقد ظن أني أمزح. لكنه نظر فرأى الجد في ملامحي، وأني أنتظر منه جواباً فقال:

- هذه الخادم سُرِّيَّة (رقيق)، وهبها لك سيدنا السُّلْطَان لتخدمك بلا ثمن. هي ملك لك فافعل بها ما شئت. يمكنك أن تفعل بها ومعها كل شيء إن أردت، فهي ملك يمين. أما الطعام والشراب فسوف يأتيك كل يوم في كوخك، فهو من مخصصات الضيافة لك ولرجال البلاط. وإن لم تعجبك أو أردت سرية أخرى لمتعتك فأخبرني.

قالها وانقلب منصرفاً غير آبه، وكأن الأمر لا يستحق الأخذ والرد. لم يقف ليسمع تعليقي بالقبول أو الرفض. وقف شعر رأسي هلعاً، وانعقد لساني. لم أكن أتوقع هذا. بقيت أهمهم:

- معقول هذا؟ رقيق! هل قال رقيق فعلاً؟ وسرية للمتعة؟

ثم صرت أحدث نفسي: الناس هنا يستعَبْد بعضهم بعضاً؟ واضح أنهم يسرقون أبناء القبائل في غفلة منهم، أو يأخذونهم عنوة، ثم يتخذونهم رقيقاً وعبيداً. كيف يقبلون أن تنشأ صبية بعيداً عن أبيها وأمها، وإخوتها وأقرانها، وأسرتها وأهلها؟ أليس لهؤلاء الناس قلوب، وفي قلوبهم

رحمة؟ كيف يهينونها ويذلونها فيحلقون شعر رأسها، ويجردونها من ثيابها هكذا؟ ومؤكد أنهم يضربونها لو لم تطع الأوامر. تخدم أسياداً بلا مقابل غير الطعام والشراب والمأوى، ولو امتنعت فالسياط تلهب ظهرها، والتجويع يعض كبدها، والحزن فوق هذا كله يأكلها أكلاً؟ وربما يعتدون عليها، مؤكد أنهم يعتدون على شرفها.

عندما سمع همهماتي وقف والتفت:

– هل قلت شيئاً يا سيد «عَبْد السَّمِيع»؟ لم أسمعك.

– لا. لا شيء، فأنا معتاد على أداء أورادي في مثل هذا الوقت.

– ما شاء الله، بركاتك يا شيخ. ادع لنا!

قالها ثم ضحك وانصرف. مؤكد أنه سمع بعض همهماتي وفهمها. ولكني جَبُنْتُ وخِفْتُ أن أصارحه بما في نفسي فيحدث ما لا تحمد عقباه، فاضطرني للإنكار خوفاً من عاقبة الصدق والصراحة.

انصرف القائد «شَاوِرْ» وتركني محبطاً حزيناً في ذلك الصباح. وترك الصبية واقفة كأنها صنم أبنوسي منتصب خارج الكوخ. وبقيتُ متردداً هل أدخلها معي أم أتركها في الخارج؟ ثم ضربها برد الصباح فأشفقتُ عليها وأدخلتُها الكوخ. لم تكن خائفة، لكنها كانت قلقة ومترددة، لا تعرف ماذا تفعل. ورغم أنها كانت ترجُفُ من البرد، إلا أنها وقفت هناك خانعة تنتظر أوامري وتعليماتي، ولم تقترب من النار التي أوقدتُهَا

لأستدفئ بها. كانت تريد أن تعرف دورها هنا في هذا البيت، مع هذا السيد الجديد. دَعَوْتُها لتجلس قرب النار فامتثلت ممتنة لصنيعي هذا. وحاولت أن أحادثها ليذهب قلقها، وتعتاد على الكوخ وصاحبه:

- اسمي «عَبْد السَّمِيع» فما اسمك يا صبية؟

رمقتني بنظرة خاطفة قبل أن تعود فتنظر إلى الأرض مرة أخرى، وقد مدت يديها تستدفيء بالنار:

- «تَنْتَنَة»! ياسيدي.

- تَنْ؟ تَنَة؟ اسم غريب! ماذا يعني؟

- زينة! للتُوبْ ياسيدي. زَلْكَشَة للهدوم!

كانت تتكلم العربية بلهجة غريبة، ولكنة أعجمية، وتنطق الراء لاماً، فلابد أنها قصدت (زَرْكَشَة)! وكانت تصمت قليلاً قبل كل كلمة، فلابد أنها تبحث عن المفردات المناسبة. وكان واضحاً أن لغتها الأم ليست العربية، لكنها مع ذلك تفهم العربية وتجتهد للتحدث بها.

- سوف أناديك «زينة»، فهو اسم سهل ومناسب. مكانك يا «زينة» سوف يكون في الركن الآخر من الكوخ، لتنامي فيه بضعة أيام، لأنني بعدها سوف أرسلك مع الجنود في أول مشوار لهم إلى البادية، لتعملي عند «صُلَيْحَة» زوجتي، فأنا لا أحتاج خادمة هنا في هذا المكان. أنا معتاد على صنع طعامي وغسل ثيابي ونظافة بيتي بنفسي! و«صُلَيْحَة» تحتاجك أكثر من حاجتي لك. موافقة؟

- جِلِنْقْ!

انتبهتُ على الفور لتلك الكلمة التي قالتها. فقد أخرجتْ صوتاً غريباً من فمها، حيث عوجته قليلاً ناحية الخد الأيمن، وضغطت على صحن خدها من الداخل، فخرج ذلك الصوت. فهمت أنه يعني نعم، فالصوت كان يشبه صوت سقوط حصاة في الماء، أو نقطة ماء كبيرة حين تقع في الإناء. لم يكن يحتوي حروفاً، لكني فهمت معناه. سمعت أهل هذه الناحية بعد ذلك ينطقونه كثيراً، ويعني عندهم نعم أو موافق. وواضح أن الكلام بهذه الطريقة واستخدام الأصوات الغريبة بدل الألفاظ هو أمر شائع عند القبائل النازحة من أعالي هضاب وجبال أكسوم، فبعضهم يشهق عندما يقول نعم.

قلت لها:

- أسمعيني الصوت الذي يعني لا!

ابتسمت في حياء، ثم قالت:

- متْشِيِمْ!.

لما نَطَقَتْهَا أطبقت شفتيها قليلاً، ثم فرجتهما لتشفط الهواء إلى فمها وقد أطبقت أسنانها، فأحدث دخول الهواء صوتاً كهيئة من ينطق حرف الميم، لينتهي عند شفتيها. أحسست أن هذا الصوت كان مكتوماً داخل فمها، قبل أن يخرج آخر الأمر. أهل هذه البلاد يتكلمون بأصوات لا

تحتوي حروفاً. ضحكتُ رغم حزني، ورغم البؤس الذي أحسست به. ثم انتبهت بعد ذلك أنني غيرت لها اسمها بسهولة، وأنها لم تمانع، فقد قبلت الاسم الجديد «زِينَة» بدلاً من «تَنْتَنَة»! وبغير جدال.

– هل أنت مسلمة يا زينة؟

سألتها ببراءة فصمتت، وأطرقت إلى الأرض ولم تجبني، ففهمت أنها ليست مسلمة! لكن القائد «شَاوِرْ» أخبرني بعد ذلك أن تجارة الرقيق هنا في هذه المناطق تكون بعد الغارات التي يشنها الجنود على مناطق غير المسلمين، وأن السُّلْطَان أخبرهم أنه لا يجوز أخذ المسلمين عبيداً. ولكن كثيراً من العبيد الذين يجاء بهم إلى فازوغلي سرعان ما يتحولون إلى الإسلام، ويكون ذلك كفيلاً بتحريرهم من العبودية، وانخراط الرجال جنوداً في جيش السُّلْطَان. أما النساء فيخدمن رجال البلاط والتجار والنبلاء في البيوت.

***

الناس هنا لهم ألوان شتى، وسَحْنَات مختلفة، ووجوه تدل على قبائل كثيرة مختلطة. الحركة دائبة والباعة (الجَلَّابَةُ) يتجولون على ظهور الحمير. اكتشفت أحياء مخصصة لكل قبيلة لا يخالطهم فيها أفراد قبيلة أخرى، وأحياء كاملة للعبيد، وأخرى للجنود. واكتشفت أحياء خاصة للفُونْج، وغيرها للهمج، ورأيت بعض منازل التجار، ومنازل القادة.

مظهر المدينة المتواضع لا يدل على هذا الثراء الفاحش الذي لاحظته في مجتمع التجار. معظم نساء التجار مثقلات بالذهب والحُلي، يصبغن أيديهن وأرجلهن بالحناء السوداء، ويلبسن الثياب الفاخرة من نسيج مصر، مثل الثوب الأبيض، وثياب الدُّنْقُس، والقَرِنْ. لكنهن رغم ذلك الترف لا يخطن الثياب. فإذا تحركت الواحدة منهن في مشيتها انكشف جزء من جسمها، أو بانت مفاتنها. بينما يلبس التجار الثوب المُنِيري، والبَصْرَاوي الأخضر، والحذاء الصَّرْمُوجَة، وعِمَمَ الشِّيشَان الفاخرة، والكُوفِّيَة المصنوعة من الفضة، أو الحرير الصرف، أو الحرير المُذَهَّب، توضع على الرأس ويسقط بعضها على الظَّهْر. لاحظت أنهم لا يخيطون الثياب البتة. وعلمت أن الخياطة محرمة في أعرافهم وتقاليدهم. لم أتخيل قط في حياتي أن هناك ترفاً وبذخاً بهذا المستوى في وسط هذه الأدغال. هذه الدولة الوليدة تذخر بالذهب والمال والتجارة. لكن ليست جميع السلع متاحة للعامة، فالسُّلْطَان وكبار التجار هم الذين يحصلون على سلع لا يمكن إتاحتها إلا للخواص، مثل الصابون والقرنفل، والأقمشة القطنية، وخشب الصندل، والمسك، وملابس الجوخ والحرير.

أخبرني جيراني أن السُّلْطَان عنده أشياء نادرة، مثل البُنْ والتُنْبَاك والتَّبْغ والتَّوَابل، كالفُلْفُل والشَّمار والكُزْبَرَة، وعطور المِسْكِ والعَنْبَر وأنه يأكل الطعام الفاخر، مثل لحوم الدجاج والطيور، والفطائر ولحم الضأن، يأكلها كل يوم تقريباً في وجباته الاعتيادية.

تجولت قليلاً فرأيت كثيراً من الفقراء في أحياء هذه البلدة من العامة، يسكنون في منازل من القش والجالوص، يلبس رجالهم قميص الدَّمُّور الرخيص، بينما تلبس النساء فَرْدَة الدمور والفِرْكَة، وتلبس الفتيات الرَّحْط الذي لا يستر عوراتهن، بينما يلبس فقراء الصوفية الجِبَّةَ المُرَقَّعَة. ولاحظت أن الفقراء أكثر سعادة وإقبالاً على الحياة من الأغنياء، فهم قانعون بما لديهم، فطعامهم هو الكسرة والملاح! وشيء قليل من اللبن وبيض الدجاج.

إلا أن أكثر شيء أحزنني هو طبقات الناس. (فالقواويد) هنا هم مثل الملوك، وكذلك الجنود مُقَدَّمُون على غيرهم، وخيول السُّلْطَان هي أجود الخيول، وأسلحته أفتك الأسلحة، وكذا طبقة الخواجات التجار، هم سادة على كل المجتمع، بينما شيوخ القرآن والفقه هم محل الاحترام دون غيرهم، وكلمتهم لا ترد.

رأيت أن الناس هنا يخلطون بين المتصوفة والسَّحَرة، فيطلقون عليهم لفظ (الفُقَرَا). وجميع هؤلاء مقدسون، ومحل الاحترام المقرون بالرهبة. أما المزارعون ففي المرتبة الأدنى، ومعظمهم من العبيد. وقليل منهم من الأحرار الذين يكدون ويكدحون، لكنهم ليسوا محل التقدير، وهم دائماً مثقلون بالضرائب والعوائد، والإتاوات ذات الأسماء المتعددة، التي لا تبقي لهم في موسم الحصاد إلا النذر اليسير. وربما يقترض أحدهم، وحين لا يستطيع السداد يأخذه صاحب الدَيْنِ رقيقاً فيبيعه، ويبيع أبناءه

وزوجته، ليسترد ماله بتلك الطريقة. عرفت هذا كله بعد أيام قليلة من التجوال في السوق، فالجميع يحكي عن مشكلات الضرائب والإتاوات التي تثقل كاهلهم، وتقض مضاجعهم، وتهددهم بأخذهم رقيقاً، وبيعهم عبيداً هم وزوجاتهم وذرياتهم. يتحدثون عن أنواع كثيرة من الضرائب لدرجة أنه بالرغم من أنهم اجتهدوا في شرحها لي كثيراً لم أتمكن من استيعابها، مع أني حفظت بعض أسمائها وأنواعها لغرابتها. قالوا لي هناك ضرائب شرعية، وأخرى عرفية. يدفعها أصحاب الأراضي للسلطان، مثل السَّبَل وعَلُوق شَرُورْ، وتَوْرَات وكَلِيفَة، وخِدْمَة ونُزُول، وجَسَارَة وخَسَارَة، وضِيَافَة وعَادَة، وعَانَة وقِلْ، وجَلا ومُخْلا، وسَنْسَنَة وكِسْرَة!

***

لم أقابل السُّلْطَان بعد، لكن علمت أنه أمرهم بإحضاري لسببين: الأول هو أنني مغربي، فمعناه أني أحفظ القرآن - رغم أني لم أكن كذلك – وبذا يحتاجونني لتعليم صبيان السُّلْطَان، فهذه المنطقة لا يوجد بها شيوخ كثيرون ومعلمو صبيان، بالرغم من كثرة المتصوفة في أرجائها. فأيقنت أن هؤلاء هم سحرة، يلبسون ثياب الدين، ليمارسوا بذلك سلطاتهم على العامة والمساكين. وما هم بأهل قرآن، ولا فقه ولا دين. وعلمت أن السُّلْطَان كلما يحتاج الأمور المتعلقة بالشيوخ واللغة العربية والقرآن لا يلجأ لهؤلاء (الفقرا)، وإنما يأمر الجنود بالتوجه نحو المشيخات في السافل، ليجدوا ما يبحثون عنه، فالسحرة هناك قلة، ومعظم الشيوخ

هناك هم شيوخ قرآن وفقه وعلم حقيقي. علمت أن السُّلْطَان «عِمَارَة» عرف بأمري من الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ» الذي كان قد تولى تزويجي في بُتْرِي الشَّرْقِيَّة يوم تقدمتُ أطلب «صُلَيْحَة» منذ سنوات عديدة. ثم إني أعرف القراءة والكتابة. والسُّلْطَان محتاج لمن يحسنها، فهم يكتبون الوثائق بالعربية، لغة المراسلات والتوثيق عند الفُونْج. ولا بد أن الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ» ظن أنني من الحفظة، لما علم أني أحسن القراءة والكتابة. فكل من يعرف الكتابة هنا لابد أن يكون من حفظة القرآن عندهم، فهم في الخلاوي يعلمون الصبيان القراءة والكتابة عندما يحفظونهم القرآن، فلا يخرج الصبي إلا بعد إتقان الخط، ومعرفة القراءة والكتابة.

استمر القائد «شَاوِرْ» في زيارتي في الكوخ كل ليلة، فهو الموكل بضيافتي، والمسئول عن راحتي. لكنه عندما نادى «تَنْتَنَة» مرة وقلت له إنني غيرت اسمها ليكون «زينة» ضحك ضحكة خبيثة، ثم قال لي هذا شأنك، لكن احذر أن تسمي العبيد بأسماء الأسياد، لأن هذا من شأنه أن يخالف الأعراف والتقاليد في هذه المنطقة. ثم شرح لي أن مسألة اتخاذ العبيد هنا وكثرتهم هو أمر طبيعي معتاد، وأنه يسهل الحصول عليهم وتداولهم، فهم بمثابة أي سلعة أو بضاعة، وأن عليَّ أن أعتاد على هذا الأمر، فالسُّلْطَان نفسه يمتلك أكبر قدر من العبيد، ويتخذهم للتجارة.

عَلَّمَنِي القائد «شَاوِرْ» كيف أتصرف عندما أدخل مجلس السُّلْطَان. وأخبرني بصرامة أن هناك تراتيب عند الدخول والجلوس في حضرته،

لابد من التقيد بها دون زيادة أو نقصان. قال لي أولاً لابد من (الدنقوس) للسلطان. ولما نظر فوجد أني لم أفهم مقصده شرح لي ذلك بنفسه، فَخَرَّ إلى الأرض (مُدَنْقِسَاً) كهيئة السجود، لكنه لم يضع جبهته على الأرض. فعلمت أنها تحية للسلطان، تعبيراً عن الخضوع.

قال لي إنهم رأوا هذا عند القبائل التي إلى الشرق في مملكة أكسوم، عندما يمثلون أمام الملك، فهم ينحنون ويقول أحدهم: (إشِّي دْجَان نَغُوسِ)، بِلُغَةِ الحَبَش، أي تحية للنجاشي العظيم. والسُّلْطَان «عِمَارَة» رأى هذا عندهم فأعجبه، وأمر به الجنود حين يمثلون أمامه. لكنه صار طقساً يفعله الناس هنا، فارتبط بالسُّلْطَان «عِمَارَة»، وصار لقباً له عند الفُونْج، فقالوا «عِمَارَة» دونْغُوسْ أو دُونْقُوس! ولم أعترض على هذا الشرح رغم غرابته، فقبلته واعتبرته من قبيل المُسَلَّمات غير القابلة للنقاش، وأنه للانصياع والتنفيذ.

مكثت في الانتظار يومين قبل أن يسمح لي بالذهاب لمجلس السُّلْطَان. فذلك لا يحدث إلا إن طلب هو مقابلتي. ولا أحد يجرؤ أن يأتي إلى بلاط السُّلْطَان ويجلس في حضرته إلا إن استدعاه. وحين يأتي يجب ألا يصطحب معه أحداً، بل يأتي وحده، ويترك سلاحه خارج القاعة السُّلْطَانية. شرح لي القائد «شَاوِرْ» أنني عند الدخول لابد أن أخلع نعلي وطاقيتي، وأعري كتفيَّ من الملابس، وأنزل ملابسي إلى الخصر، فيكون الجزء الأعلى من جسدي عارياً. وعندما أتقدم يجب أن أحني رأسي،

وأغض بصري فلا أنظر إليه أبداً. وعند الاقتراب بمسافة كافية أبدأ بتقديم فروض الولاء والطاعة، بأن أنحني وأجعل جبهتي قريبة من الأرض أمام السُّلْطَان، ثم لا أجلس على الأرض إلا إن سَمَحَ لي بذلك.

أخبرني أن هناك حجراً في قاعة المجلس هو علامة للحد الذي يجب ألا أتجاوزه، ولا أتخطاه حين أتجه لمقابلة السُّلْطَان. وإلا فلا ألومن إلا نفسي، لأن «مالك» سيد القوم (سياف السُّلْطَان) لن يتوانى عن قطع رقبتي على الفور إن أنا فعلت ذلك فتجاوزت الحجر!

أخبرني كذلك أن الجلوس في حضرة السُّلْطَان له طرق وأوضاع محددة لا يمكن مخالفتها. فالعامة يجلسون بجعل الساق اليسرى ملامسة الأرض، بينما ينصبون الأخرى ويحتوونها بكلتا ذراعيهم. أما أصحاب الامتياز من التجار ورجال الدين فيسمح لهم بالجلوس وسيقانهم مستوية مع الأرض، ويمكنهم أن يتكئوا إن شاءوا. لكن القادة والزعماء وأصحاب الحظوة لدى السُّلْطَان يستطيعون الجلوس مع خلف الأرجل في حضرته. أخبرني أن السُّلْطَان في أول أمره كان يجلس على الفَرْش والعَنْقَرِيب - الذي هو بمثابة كرسي العرش - وذلك قبل أن يهدي إليه الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ» ذلك (الكَكَر) ذا الأرجل الستة، ليكون بمثابة كرسي السُّلْطَان وحده، بعد الانتقال إلى المدينة الجديدة (سِنَّار). أخبرني أن هذا (الكَكَرْ) ونحاس مَلِك عَلَوَة هما الغنيمتان الوحيدتان اللتان أخذهما الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ» عند خراب (سُوبَا)، فبقيتا عنده

إلى أن أهداهما للسلطان «عِمَارَة». وهو لم يأخذهما لأجل قيمتهما المادية، فقد ترك أبواب الذهب التي كانت في الكنائس، وكنوز (سُوبَا) دون أن يمسها. لكن الشيخ «جَمَّاعْ» قصد من أخذ هذا (الكَكَر) الذي كان يجلس عليه ملك علوة، أن يرمز لانتقال الملك من حوزة ذلك الملك إلى حوزة السُّلْطَان «عِمَارَة ود عدلان». وهو كذلك رمز لخضوع القواسمة لملوك الفُونْج. وأما أخذ النحاس من ملك علوة فالمقصود به أن يذل ذلك الملك. فالنحاس هو رمز لعزة الدولة وهيبتها.

يوم استدعاني السُّلْطَان للمثول بين يديه تهيبت الأمر جداً. لكنني كنت فرحاً لأني سأقابله لأول مرة. لبست ثيابي المغربية ليعرف الحاضرون أني مغربي مسلم، وأني لست (خواجة) نصراني. واصطحبني القائد «شَاوِرْ» للقاعة السُّلْطَانية. كان السُّلْطَان يجلس فوق دَكَّةٍ عالية ترتفع ذراعين من الأرض، ومغطاة ببساط أحمر. وكان هناك حجر فعلاً مثلما أخبرني القائد «شَاوِرْ». وعندما رأيت ذلك الحجر على مسافة بضعة أذرع من دَكَّة السُّلْطَان علمت أنه الحد الذي ينبغي ألا أتجاوزه، فوقفت دونه ولم أقترب منه. وعندما مَثُلتُ بين يدي السُّلْطَان «عِمَارَة ود عدلان» خلعت ثيابي، وأنزلتها إلى الخصر، وتركت كتفي عاريتين، وصنعت (الدنقوس) تماماً كما علمني القائد «شَاوِرْ». ثم رفعت رأسي ونطقت عبارة (إشِّي) كما شرح لي، فرأيت الابتسامة في وجه السُّلْطَان، ولم أفهم السبب إلا بعد خروجي من المجلس، حيث أخبرني أحدهم أن هذه العبارة خاصة

بمملكة أكسوم، وأن السُّلْطَان تعجب لأنه يعلم أنني مغربي، وليس مطلوباً مني أن أحييه بها، وهم لا يحييون بها السُّلْطَان «عِمَارَة» أصلاً. تخيلت أن القائد «شَاوِرْ» كان يريدني أن أصنع شيئاً يضحك منه السُّلْطَان «عِمَارَة»، الذي عُرِفَ عنه الصرامة، وأنه ليس معتاداً على الابتسام أو الضحك في مجلسه.

لكن السُّلْطَان سألني بلطف عن رحلتي، ثم ناول (سِيدَ الكلام) عصا قصيرة فمدها لي، ففهمت أن مسك العصا يعني الإذن بالكلام، فأمسكتها وامتدحت معاملة القائد «شَاوِرْ» لي طوال الطريق وعنايته بي. وحين التفتُّ ناحية «شَاوِرْ» رأيت السرور والفخر في وجهه. ويبدو أن السُّلْطَان عندما سألني عن رحلتي كان يريد أن يستمع للهجتي وطريقتي في الكلام. وواضح أن (سِيدَ الكلام) فهم ذلك فتباطأ في أخذ العصا مني، وتركني أسترسل، خصوصاً وأنه أعجبته لهجتي المغاربية. ولما أعلن السُّلْطَان بأنه سوف يعينني كاتباً للحُجَج تقدم القائد «شَاوِرْ» فأخذ بيدي، وجعلني أجثو على ركبتي بين يدي السُّلْطَان، ليشير بالعصا على رأسي إيذاناً بالتكليف. ثم صرفوا لي محبرة وريشة من القصب للكتابة وقراطيس! وشرحوا لي طريقة كتابة الحُجَج، وعلموني صيغة الكتابة، وأن عليَّ ألا أُغَيِّرَها، أو أتصرف فيها بالزيادة أو النقصان.

أمضيت ثلاثة أشهر في هذه المدينة بعد تلك المقابلة، تعلمت خلالها أصول كتابة حُجَج السُّلْطَان. وكنت أحضر مجالسه، وأمتع نفسي بمراقبة ما يدور في تلك القاعة السُّلْطَانية.

رأيت أن كل ما يقوله السُّلْطَان وهو جالس فوق ذلك الككر يتخذه الناس قانوناً يجب على الجميع طاعته وعدم مخالفته. السُّلْطَان لا يتكلم وهو جالس على الككر إلا في شئون العدالة وإصدار الأحكام، أو إجراء المراسيم لتأكيد مناصب القادة والزعماء، ومن يعملون في الشئون السُّلْطَانية من رجال البلاط.

لاحظت كذلك أن السُّلْطَان لا يخاطب الحاضرين في المجلس إلا عن طريق رجل يجلس أسفل الدكة على مقعد منخفض تحت (الككر)، الذي هو بمثابة كرسي العرش. وبعد خروجي من مجلس السُّلْطَان في المرة الأولى سألت القائد «شَاوِرْ» عنه فقال لي هذا الرجل يطلق عليه (مَانَا مَالَسَنَا) ومعناها (سِيدَ الكلام). ويبدو أنه هو مترجم السُّلْطَان كذلك، فهو يفهم لهجات ولغات القوم جميعها. ولاحظت أن السُّلْطَان يعطيه الحق في مخاطبة البلاط بأن يمنحه عصا صغيرة ويقوم (سيد الكلام) بوضعها في يد من يأذن له بالكلام في مجلس السُّلْطَان، ثم يستردها منه بعد انتهاء حديثه. وأما السُّلْطَان فيستعيد العصا من (سِيد الكلام) نفسه عندما يريد إقرار الصمت في مجلسه.

عندما دخلت أول مرة ذكر (سِيدَ الكلام) اسمي للسلطان، لكنه لم يترجم كلامي بعد ذلك حين علم أنني أتحدث العربية، واكتفى بالمتابعة ثم أخذ العصا مني بعدما أكملت حديثي.

***

الرسالة

بعد بضعة أسابيع وصلتني رسالة من «صُلَيْحَة». أحضرها بعض القادمين من أرض البطانة على حدود مملكة العَبْدلاب. أخبروني أن شيخاً مغربياً اسمه «عَبْد الحميد» أعطاهم تلك الرسالة، وطلب منهم توصيلها للشاب «عَبْد السَّمِيع» المغربي، في مجلس السُّلْطَان «عِمَارَة». شوقي لك يا «صُلَيْحَة». لو يعلمون حبي لك ما أخذوني منك أبداً، ولتركوني رمزاً لعشق الزوج لزوجته. لم تغيبي عن خاطري لحظة واحدة، حتى حين أكون في مجلس السُّلْطَان «عِمَارَة» أبقى مشغولاً بك.

فور استلام الرسالة أسرعت عائداً للكوخ في ذلك الصباح، متلهفاً لقراءتها. ولدهشتي حين فضضت غلافها شممت عبق البخور والطيب في ذلك الغلاف. دمعت عيناي وأنا أفضه. كانت مكتوبة على قرطاس أصفر، وملفوفة في خرقة من المخمل الأخضر الخلاب. وكنت أظن أن الذي كتبها هو صهري «الحاج عَبْد الحميد». ولكن لدهشتي رأيت أن خطها لا يشبه خطه، وأن من كتبتها هي أنت يا «صُلَيْحَة»، كتبتها بنفسك. كانت عيناي تلتهمان سطورها غير مصدقتين:

(زوجي الحبيب «عَبْد السَّمِيع». هذه أول رسالة أكتبها في حياتي. فرأيت أن تكون موجهة إليك. وربما تفاجأ بأنني أنا من كتبتها بنفسي،

ولم يساعدني أحد في أي جزء منها. لذا فأرجوك لا تضحك من لغتي غير المرتبة أو أخطائي الكتابية.

حبيبي «عَبْد السَّمِيع». لم أنس ذلك اليوم عندما جاء الجنود فأخذوك، واختاروك بأمر من السُّلْطَان، من بين جميع الذين يقطنون بادية البطانة. ورغم أني حزنت جداً لمفارقتك، إلا أنني فرحت لأنك ستكون من خاصة السُّلْطَان وأعوانه. وهذا مناسب لك ولنا جميعاً، فهو يدل على ثقة السُّلْطَان فينا معشر المغاربة. لم أعرف يومها إلى أين أخذوك. فقد كان السُّلْطَان مقيماً قبل ذلك في مكان مجهول، ثم علمت أنها منطقة فازوغلي حيث أخذوك، وأنه يعتزم الانتقال منها إلى ناحية سِنَّارْ. فرحت جداً عندما علمتُ أنه اتخذك كاتباً وناسخاً، كما كلفك بإنشاء مكتبة له فهو - كما سمعت - محب للعلم والعلماء والقراء. ولذلك فهو يتخذ حوله بطانة من الأشراف والعلماء.

أنت تعلم أن الشريفة «عائشة بنت الشريف حمد أبودنانة»، زوجة الملك الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ»، هي التي شجعتني على تعلم القراءة والكتابة، يوم نزلنا ضيوفاً عندها في مدينة قَرِّي، أنا و«ميمونة» وذلك قبل أن أعرفك. أنت تذكر «ميمونة» فقد حدثتك عنها فقلت لك إني عرفتها في القافلة عند هروبي من المغرب، ثم أقمتُ معها في (سُوبَا) قبل خرابها بعدة أشهر. «ميمونة» هي التي علمتني الحروف الأبجدية وتكوين الجمل. لكن جدي الحاج هو من أكمل تعليمي وتثقيفي في

غيابك، فكان يؤنسني كثيراً كلما نجلس معاً كل ليلة، فيحكي لي أخباره أيام كان بأرض الأندلس، أو يعلمني القراءة والكتابة والإنشاء. أدركت أنه كان يعوضني تلك الفترة التي قضيتها معه في البيت، بعد وفاة أمي وأبي، دون أن يرسلني إلى المحظرة، خوفاً من الوباء الذي انتشر بالمغرب آنذاك. اكتشفت أن جدي يملك ذخيرة من ذكريات جميلة وأخرى مؤلمة ومبكية.

لأول مرة بعد ذهابك يكشف لي عن مكنوناته، ويحدثني عن ذكرياته في الأندلس. أيام كنت صغيرة كان يتجنب الكلام عن تلك البلاد. وعندما كانوا يتحدثون في زاوية سيدي «محمد المختار»، ثم أفاجئهم بحضوري لأجلس في حجر جدي، كان يصمت أو يغير الموضوع. لكنه الآن وبعدما كبرت بدأ يخبرني تلك القصص الحزينة. يبدو أنه كان يبحث عمن يبثه أشجانه وأحزانه. في غيابك بعد أن بقينا وحدنا قص لي الكثير من القصص والحكايات عن الأحداث التي وقعت يوم اضطروا لمغادرة (غرناطة)، بعد أن دخلها القشتاليون. لكنه أخبرني عن إشراقات كثيرة في تلك البلاد، وأنه قرأ كثيراً من الكتب والمؤلفات. فقد كان يذهب إلى (قرطبة) ليمكث في المكتبة الأموية، التي أنشأها «محمد بن عَبْد الرحمن الأوسط»، وفي القسم الذي أضافه «عَبْد الرحمن الناصر»، فيقرأ التاريخ والتراجم، والأدب والعلوم، والمؤلفات الفقهية والتشريعية. أخبرني أن تلك المكتبة كانت تسمى مكتبة القصر، ويعمل فيها أمهر المجلدين في

الأندلس، إلى جانب آخرين جيء بهم من (صقلية) و(بغداد)، ومعهم جمهرة من الرسامين والمزوقين، والمنمقين الذين يزخرفون الكتب بالزخارف الجميلة، بعد أن ينسخها الخطاطون لتقديمها إلى مجلس كبار العلماء ليقوم بمعارضتها وتصحيحها. والدولة تدفع لهم في سخاء. وطائفة من هؤلاء العلماء الأدباء اللغويين، يقومون بمراجعة الكتب ومعارضتها وتصحيحها في (قرطبة) و(الزهراء)، حيث يشترط فيمن يقوم بهذه الأعمال أن يكون ناسخاً ووراقاً كذلك. وأخبرني بأن القائمين على أمر المكتبات والخزائن العامة للكتب كانوا يستخدمون الخطاطات من النساء، فقد كُنّ مشتهرات بحذق هذه الصناعة، حيث يكتبن الكتب ويجدن الخط. فحفزني كلامه هذا على تجويد خطي في الكتابة.

قال لي إن عدد فهارس المكتبة الأموية كان ألفين ومائتي ورقة، تحتوي أسماء المؤلفات فقط. وأن عدد المجلدات بلغ أكثر من أربعمائة وأربعين ألف مجلد، في تلك المكتبة وحدها دون غيرها. وللمكتبة ورَّاقون بأقطار البلاد، ينتخبون غرائب التوليف، يتوجهون إلى الآفاق، ويأتون بالمصنفات والمؤلفات. حكى لي جدي كثيراً مما أحببت أن أشاركك بعضه، وذلك عندما علمت أنهم كلفوك بإنشاء خزانة للكتب خاصة بالسُّلْطَان «عِمَارَة» إضافة إلى عملك كناسخ وكاتب للحُجَج السُّلْطَانية.

أخبرني أن القرطبيين اهتموا بالمكتبات والكتب اهتمامًا زائداً، حتى كان إنشاء مكتبة في البيوت أحد المظاهر الدالة على وجوب الاحترام

والتوقير لذلك الشخص بين الأندلسيين. وروى لي قصة طريفة حدثت له مع رجل في قرطبة حول كتاب من الكتب، فأحببت أن أشاركك متعة تلك الحكاية قال لي جدي:

– أقمتُ مرة بقرطبة، ولازمتُ سوق كتبها مدة أترقبُ وقوع كتاب كنت أحتاجه جداً، واسمه (منهاج الطالبين وعمدة المفتين للنووي) إلى أن وجدته ففرحت به أشد الفرح. وجعلت أزيدُ في ثمنه فيرجع إليَّ المنادي بالزيادة عليّ إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلتُ له: يا هذا، من الذي يزيد في ثمن هذا الكتاب حتى أعجزني عن شرائه مع أنه لا يساوي في الثمن كل هذه النقود؟

فدلني على شخص عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له:

– أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده.

فقال لي:

– لستُ بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكني أقمتُ خزانة كُتُب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيتُه حَسَنَ الخَطِّ، جيدَ التجليد استحسَنْتُهُ، ولم أُبالِ بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير.

فأحرجني وحملني على أن قلتُ له:

– سبحان الرزاق الذي يُعطي الجوز حتى لمن ليس عنده أسنان. رجل مثلك يكون الرزق عنده كثيراً فيزايد على الكتاب ليملأ به فراغاً

في مكتبته، وهو ليس بفقيه ولا مفتٍ، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به في الفتيا لا أملك المزايدة على ثمنه، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه! فذلك لحكمة يعلمها الله، والحمد لله على كل حال. ثم لم أقدر على شراء الكتاب فتركته متحسراً.

وبعد أن حكى لي هذا قال ليت دولة الفُونْج الوليدة تولي هذا الأمر عنايتها واهتمامها، ما دام سلطانها ينتسب إلى البيت الأموي، فقد عرف الأمويون بحبهم للعلم والكتب والمكتبات. بل ليت مَشْيَخَة العرب القواسمة هي الأخرى تهتم بهذا الأمر. ولو حدث فسوف أعمل على نقل كل ما رأيته من نظام وإدارة في مكتبة (قرطبة) لمكتبة سلطان الفُونْج إن هو أنشأها. والآن أصبحت أنت صهره أميناً على تلك المكتبة. ولهذا فقد كتبت إليك وأوصاني جدي أن أنقل لك كل هذا الذي حدثتك به.

حبيبي «عَبْد السَّمِيع»: حكى لي جدي أنه غادر قرطبة لما أراد القشتاليون البرابرة إجباره على اعتناق النصرانية، فخرج هارباً منهم وقام بعبور المضيق متوجهاً إلى بلاد المغرب، هو والشيخ «الجزولي»، وذلك قبل أن يفترقا. حيث ذهب «الجزولي» إلى (مراكش)، بينما توجه جدي إلى مدينة (فاس). لكن القشتاليين قبضوا على بعض أقاربه هناك، فلم يتمكنوا من عبور المضيق، بينما سمع أن بعضهم عبر في قارب صغير إلى بلاد المغرب، وأنهم ماتوا في ذلك الوباء.

أخبرني كذلك أنه قد علم منذ بضعة أيام أن بقية أقاربه الذين حدثتك عنهم تمكنوا من الفرار من القشتاليين، وأنهم هاجروا إلى مصر يبحثون عن بقية الأهل والأقارب، وأنهم تجمعوا هناك فأنشأوا قرية أطلقوا عليها اسم لَقَّانَة، على اسم جدهم الأكبر. أخبره بذلك الشيخ «إبراهيم اللَقَّاني» القادم من مصر لزيارة الأرباب الشيخ «إدريس بن محمد». ولابد أن جدي سوف يسافر إلى مصر لمقابلة أهله وأسرته هناك. ومؤكد أنهم لو علموا بوجوده هنا فسيأتون لمقابلته. الشيخ «إبراهيم اللَّقَّاني» فرح جداً حينما علم بأن جدي الحاج «عَبْد الحميد اللقَّاني» ما يزال حياً، وأنه قد نجا من القشتاليين. وبعدما قابله وعده أن يزف هذا النبأ لأقاربه في مصر عند عودته، فقد بقوا يبحثون عنه طوال هذه المدة.

ما علينا فقد شغلني نقل حكايات جدي ووصيته لك عن السؤال عن حالك وأخبارك. أجد متعة كبيرة في الكتابة إليك، فأنت أول إنسان أكتب إليه كما أخبرتك. وأرجو أن يعجبك خطي، وذلك أني لا أكتب إلا في الأمسيات، مستعينة بمصباح زيتي، ذي إضاءة خافتة، فأكتب إليك قبل أن آوي إلى فراشي كل ليلة. وقد استغرقتني هذه الرسالة سبع ليالٍ لأكمل تأليفها وكتابتها. فهي أول رسالة أخطها بيدي. تنتابني مشاعر شتى إذ أكتب إليك، وكثير منها لا أعرف كيف أكتبه أو أعبر عنه. فبقيت أسأل جدي عن بعض المفردات فأنا لا أملك العبارات الكافية. ولو كتبتها لما اتسعت لها القراطيس، لكن يكفيني أنك تحس بما أريد أن أعبر

لك عنه. حين أكتب أحس بك قريباً مني تراقب اضطراب مشاعري وأنا أحاول الكتابة، أو تتلصص لتقرأ ما أكتب ثم تبتسم أو تضحك بصوت عالٍ.

جدي يناديني فلا بد أنه جائع. حبيبي «عَبْد السَّمِيع» إن وجدت وقتاً فسوف أكمل هذه الرسالة. وسوف أرسلها إليك مع الجنود الذين سيمرون بنا غداً صباحاً. إليك مع أشواقي وحبي.

آه. كدت أنسى! فقد دعتنا الشريفة «فاطمة المرضية» للانتقال إلى (بُتْرِي الشَّرْقية) أنا وجدي الحاج، وذلك للإقامة معهم لأن جهة (عَلْوَان) هنا هي في واقع الأمر مكان قفر لا سكان فيه، كما أنها منحتنا بيتاً بجوار بيتها، وذلك ليتمكن جدي من تدريس التلاميذ الفقه المالكي. ولهذا فسوف ننتقل بعد غد إلى هناك إن أذنتَ لنا!

أشكرك جزيل الشكر لإرسال الخادمة «تَنْتَنَة زِينَة». فقد وصلتْ منذ نحو أسبوع، وذلك في يوم ماطر، وهي معي الآن تخدمني. وقد منحتها بعضاً من ملابسي، وبدأت تعليمها. مسكينة! فقد أخبرتني أنهم قتلوا أباها وأمها قبل أن يأخذوها أسيرة. قصتها مؤلمة وتدمي القلوب، لكنها الآن بخير وهي معي. أخبرتني أنك أنت من أطلق عليها الاسم الجديد «زينة»، وهي أحبته، وحكت لي عن لطفك معها. قالت لي زوجك رجل ذو قلب كبير، فقلت لها أنت لم تبقي معه إلا بضعة أيام، فكيف لو بقيت

معه العمر كله؟ زوجي الحبيب: أنت نعمة من الله وهبها لي، وعوضني بها عن فقد الأب والأم منذ الصغر. وربما استجاب لدعوات جدي فرزقني بك! زوجاً صالحاً ومحباً. كن بخير دائماً). «صُلَيْحَة».

***

أسعدتني هذه الرسالة جداً، فقد نقلتني فوراً إلى (عَلْوَان) في بادية البطانة شرق خرائب (سُوبَا)، وذكرياتي الحلوة مع «صُلَيْحَة». ربما أكون قد قرأتها عشرين مرة أو تزيد. كنت أقرأها صباح كل يوم. استحوذتْ رسالتُها على تفكيري وعقلي مدة غير يسيرة. بقيت أستعيد حديثها الحلو حين كنا معاً. تذكرت حكاياتها لي عن ماضيها بعد أن تزوجنا، فكنا نسهر نتحادث ونسمر. أذكر أنها في تلك الأيام الجميلة بقيت تحدثني ليلة كاملة. فلم ننتبه إلا وقد صاح الديك مؤذناً بطلوع الفجر. روت لي أحاديث كثيرة. حكت لي عن ماضيها وحاضرها. أذكر أنها قالت لي:

أنت تعلم حبي لهذا المكان، (بُتْري الشَّرْقِيَّة)، ففيه رأيتك أول مرة، وفيه تقدمت لخطبتي، وفيه تزوجنا. فلهذا المكان ذكريات حبيبة إلى قلبي، خاصة وأني أقمت فيه مدة، وعقدت صداقات مع النساء هناك، فَكُنَّ يتناوبن على استضافتي عندهن، لكوني مغاربية والنساء هنا مشرقيات، فكنت أجلس مستمعة لحواراتهن، أو أسألهن وأتعلم منهن عادات وتقاليد هذه البلاد.

وجدتُ أن جميع النساء في (بُتْري الشَّرْقِيَّة) وما حولها بلا استثناء لا يعرفن القراءة ولا الكتابة عدا امرأة واحدة، كان أبوها معلماً للقرآن. الناس هنا لا شأن لهم بتعليم النساء القراءة والكتابة. وعندما أخبرتهن أن معظم البنات المغربيات يذهبن للمحظرة لحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة منذ الصغر رأيتهن مندهشات من هذا الكلام. كن بالطبع يسألنني عن ذلك وعن عادات أهل المغرب، رغم أني غادرته صغيرة في العاشرة من عمري، ولا أعلم الكثير، إلا ما تعلمته من جدي، أو منك بعد زواجنا. إلا أن نساء القواسمة قارئات وكاتبات، وذلك لِفُشُوِّ مدارس القرآن في قَرِّي وما حولها. سمعت ذلك حين شهدت يوماً مجلس الشريفة «عائشة» زوجة الشيخ «جَمَّاعْ»، حين جاءت تزور أختها الشريفة «فاطمة المرضية» في (بُتْري الشَّرْقِيَّة). ضم ذلك المجلس مجموعة من النسوة اللاتي اجتمعن يسمرن ويتحدثن بأعجب ما رأين في زمان العجائب هذا. وجاءت القابلة الشهيرة الحاجة «زَّهْرَاء» من (حُلَيْلَة شُوحَطَتْ) في الشمال، تركب حمارها الأبيض المزركش، الذي أحسن حلاق الحمير قص شعره وحلاقة صوفه، فأصبح مثل عروس زَيَّنَتْهَا ماشطة ماهرة. وعند وصولها نزلتْ من فوق ظهره قريباً من مجلس الشريفة «عائشة»، ثم أمسكت بالرَّسَنْ[1]، وأخذت تقوده مسافة قبل أن

(١) الرَّسَن: الحبل الذي يوضع على أنف الدابة ليسهل قيادها.

تنزل خُرْجَ أدواتها وعدتها التي كانت معلقة على عَكَفَةِ السرج، ثم ربطته عند الشَّايَة[1]، وأوسعت له دائرة الخَيَّة[2] ليتمكن الحمار من الدوران بِحُرِّيَّةٍ دون أن يخنق نفسه بذلك الحبل. ثم علقت مُخْلَاةَ (العَلِيقَة) حول رقبته، بعد أن ملأتها بالذُّرَة، وأدخلت فمه فيها ليأكل. أنت تعلم أن القابلة هنا لابد لها من تعلم ركوب الحمير، فهي تحتاج لقطع المسافات الطويلة متنقلة بين القرى والأحياء، كلما جاءها طارق بليل أو نهار. تلبي نداءات الحُبَالى في كل مكان. والزيارات المتعددة التي قبل الولادة لتنبئها متى ستلد هذه ومتى يحين أوان تلك.

الحاجة «زَهْرَاء» تعيش حالة الحَبَل مع كل واحدة، ومعرفتها بالنساء عظيمة. فهي تعرف من اعتادت أن تبكر بابن سبع، أو من تلده في تسع. تعلمتْ هذا كله من أمها، فهي قد ورثت منها مهارة قِبَالَةَ النساء، جنباً إلى جنب مع مهارة خِفَاضِ البنات، والفَصْدَ والشُلُوخَ وَوَخْزَ الشِّفَاهِ بالإِبَرِ المُحَمَّاة المغموسة في الكَحل للزينة. وكسبت الدُّرْبَةَ من طول ممارستها لهذا، حتى إنها لو أغمضت عينيها فلن تخطيء حَلَمَةَ البُضْع وموضع الختان، ولا عمل الوَرْبَة للولادة ليتسع المحل لخروج رأس الطفل. وهي لا تعلم من أين ورثت أمها هذه المهارات كلها، فقد تكون تعلمتها هي

---

(١) الشَّايَة: العمود الذي تربط به الدابة فتدور حوله.

(٢) الخَيَّة: هي طريقة ربط العقدة في الحبل بحيث تترك فتحة دائرية كبيرة لا تضيق إذا تحركت الدابة أو دارت حول نفسها وتمنع أطراف الحبل من التفكك فتجعله يدور حول الشاية دون أن يلتف حولها أو يعيق حركة الدابة المربوطة.

الأخرى من أمها، وتلك بدورها أخذتها من أمهاتها السالفات. لكن «الزَّهْرَاء» تذكر أنها عند الصغر كانت تصحب أمها، فكانت تردفها خلفها في الحمار لتحمل لها (آلة القبالة)، وتعينها في تحضير القدر، وغلي الماء، وتحضير الفوطة، وربط الحبل في السقف، وتجهيزه، فالولادة لا تتم إلا بتعليق المرأة الحبلى بحبل ليسهل نزول الجنين وتتيسر قبالته.

النساء اللاتي شهدن ذلك المجلس تحدثن وثرثرن وحكين الأعاجيب والطرائف والغرائب. وضحكن حتى سالت دموعهن فكن يمسحنها بأطراف (الفَرْدَة) و(الطِّرْقَة)، أو بظاهر أيديهن، ثم يستغفرن بعد كل ضحكة مُسْتَغْرَقَة. وكن يرشفن أثناء ذلك من بَنَانِيرِ الشاي أو من فناجيل القهوة الساخنة، بشفاههن السوداء الموشومة بالإِبرَ المُحَمَّاة، التي حُشِيَتْ بالكُحْلِ الأسود من أجل الزينة، حتى تحجرت وفقدت الحس والشعور، فلا تؤثر فيها حرارة القهوة ولا لسعة (الشَّاهِي).

لكن الحاجة «زَّهْرَاء» كانت تستمع في صمت، رغم أنها كانت تشاركهن الضحك. ولاحظن صمتها فألححن عليها أن تذكر أغرب ما مر بها في حياتها. فترددت قليلاً ثم إنها نظرت إلى الأعلى واعتدلت في جلستها. فصمت الجميع وتركت الشريفة «عائشة» حَلَّةَ الطبخ التي كانت تحركها بالمِفْرَاكَةِ في ساحة الدار، وجاءت تستمع. فمعلوم من طبع حاجة «زَّهْرَاء» أنها امرأة صارمة قليلة الكلام. لكنها إذا تكلمت فلا بد ستقول جديداً ومفيداً. ليس مثل ثرثرة بقية النساء هنا. وهي

حين تتناسى صرامتها قليلاً تأتي بالأعاجيب، وتُضحك الثكالى بحلاوة طُرَفِهَا وملاحة حديثها. وحين تبدأ الكلام تشير بيديها ورأسها وتتكلم بجسدها كله وليس بلسانها فقط.

حدثتنا «الزَّهْرَاء» أنها كانت مندهشة جداً حين رأت أمها في المرة الأولى تجعل المرأة التي في المخاض تمسك بحبل يتدلى من سقف الغرفة. وكانت أمها قوية بحيث أن أعتى النساء تصبح في يدها مثل الألعوبة، تحركها كيف تشاء، وترفعها وتخفضها. بل إنها كانت أحياناً تضطر لزجر الخائفات بصوتها المرعب. كانت أمها امرأة هادئة الطبع لطيفة، إلا حين تمارس الخفاض أو التوليد، فتنقلب فجأة إلى امرأة أخرى مخيفة، صارمة القسمات، قوية النبرات، حازمة التوجيهات، تخشاها جميع النساء.

قالت «الزَّهْرَاء»:

- سوف أحدثكن بأعجب ما رأيت. ولا ريب أن بعضكن رأينه معي، لكن لم يتحدث به أحد لأن الشريفة (فاطمة المَرْضِيَّة) طلبت مني ألا أتحدث بما رأيت عندها في بيتها، يوم أن ولدَتْ ابنها «إِدْرِيسْ»، وذلك لتكف العين عن ابنها، فالعين حق كما تعلمن. لكني استأذنتها في الكلام بعد مضي كل هذه الأعوام، فأذنت لي على ألا أتكلم به إلا أمام الثقات من النساء مثلكن!

قلن لها:

- نعم نعم، نحن ثقات. حدثينا يا حاجة «زَّهْرَاء»!

– مؤكد أنني سأحدثكن به اليوم. فما رأيت مِثْلَ هذا منذ أشرفتُ على قِبَالَةِ النساء طوال أربعين عاماً، واستقبلت آلاف الأجنة من الأرحام، في (حليلة شُوحَطَتْ) وما حولها من قرى المحس، والقواسمة العَبْدلاب، وكذلك في جميع القرى المجاورة، فأخرجتهم من أرحام أمهاتهم إلى الحياة. كلكن تعلمن أن أمي كانت قابلة. وهي من أورثتني هذا العمل، فتعلمتُ فنون التوليد وطرائقه، وأصبحتْ القِبالة بالنسبة لي أيسر من عمل القهوة. حدثتني أمي عن أعجب ما رأت في قبالة النساء، وعن الأطفال الذين يخرجون بأقدامهم، واضطرارها لقلب المرأة الحبلى رأساً على عقب، فتكون قدماها للأعلى، وشعر رأسها يمسح الأرض. ثم تقوم النساء بهزها هزاً عنيفاً، حتى يرجع الطفل فينقلب ليأتي برأسه. وتتعب الأمهات كثيراً حين تتعسر الولادة بمثل هذه الطريقة، وكثيرات يتوفين أثناء الوضع. وحدثتني عن الأطفال الذين ولدوا يتامى، حيث ماتت أمهاتهم من ألم الطلق، وعن الأجنة الذين أسقطوا، أو ولدوا أمواتاً. لكني لم أر ولادة أيسر، ولا أسرع، من ولادة الشريفة «فاطمة».

– تعنين الشريفة «فاطمة صُلَيْحَة»؟

– نعم هي عينها الشريفة «فاطمة المرضية»، الملقبة «صُلْحَة». وأنتن تدللنها «صُلَيْحَة»! هي أخت الشريفة «عائشة»، التي تجلسن في ضيافتها ومجلسها وتشربن قهوتها اليوم.

كانت الشريفة «عائشة» منتبهة تتابع حديث «زَّهْرَاء» وتتبسم، فلما سمعت اسمها تشاغلت بعمل القهوة.

- احكِ لنا عنها يا «زَّهْرَاء» وكيف ولدت «إِدْرِيسْ» وماذا حدث أثناء الولادة؟

- جميع الأطفال المواليد كانوا يبدأون حياتهم بالصراخ والبكاء، إلا هذا الوليد. حين نزل من بطن أمه كان ساكناً ونظره إلى الأرض. لم يصرخ مثل بقية الأطفال، حتى ظننته ميتاً أو أن في أنفه ورئتيه مخاطاً يمنعه من التنفس والصراخ. لكن حين هممت أن أمتص السائل من أنفه بفمي وجدته نظيفاً. فقد كان يتنفس من أنفه مثل كل مولود. وعجبت كيف لم يصرخ صرخة الولادة. فهو حين خرج من الرحم استنشق الهواء، وزفر زفرة واحدة، ثم بقي يتنفس وكأنه كان يتنفس وهو في بطن أمه. وحين خرج لم يكن مغمض العينين بل كان ينظر ناحيتي نظرات لا تشبه نظر الأطفال، بل تشبه نظر شخص كبير، يعي ما حوله. لكن ليس هذا ما لفت نظري واسترعى انتباهي.

- معقول؟ وما الذي استرعى انتباهك إذن؟

- خرج هذا الطفل ملفوفاً بغشاء ملون، قد التصق بجسده كله، ما عدا يديه ووجهه وقدميه. الغشاء كان حول ظهره وخصره، وكأنه إزار الإحرام الذي يلبسه الحجيج حين يحرمون للحج أو العمرة. كان رقيقاً رفيعاً مثل الكِسْرَة المصنوعة من لب الدخن، أو عجين الذرة المنزوع القشرة. لكنه كان شفافاً وملوناً، يشبه (فِرْكَةَ القَرْمَسِيسْ) التي كانت النساء يلبسنها في (عَلَوَة) قبل زماننا هذا. وحين حاولنا نزع ذلك الغشاء

بكى. وحين تركناه سكت. وكلما حاولنا نزعه كان الطفل يتألم، وكأنَّ الغِشَاء جزء من جلده. كان جسمي يقشعر كلما حاولت نزعه، وأنا التي تقول عني صويحباتي أنني ولدت بقلب من حديد. فقد كنت أسمع صراخ النساء وتوجعهن من ألم الولادة، وكأني صماء لا تسمع. بل كنت أحياناً أقوم بضربهن، وأقول للواحدة منهن إنها تتدلل وتتغنج أكثر مما ينبغي حين الولادة. كنت أزجرهن ليمتنعن عن إزعاجي، ويتركنني أقوم بعملي. وأنه من الخير لهن أن يصمتن حتى أتمكن من إخراج الجنين، وإلا تركته في بطونهن وذهبت، فيصمتن خائفات. لكن هذا الوليد كان مختلفاً.

– وماذا حدث بعد ذلك؟ وهل بقي الغشاء معه؟

– كان الغشاء مثل قوس قزح، ذا ألوان عديدة. كان زاهياً براقاً، لكنه جفَّ وتفتت وسقط بعد أربعين يوماً، أو نحو ذلك. وبسببه أطلقتُ على الوليد لقب (أبوفركة)!

– أبوفركة! إذن أنت تتحدثين عن «إِدْرِيسْ» ود الأرباب!

– ومن غيره؟ كلكن تعرفنه هو «إِدْرِيسْ» ود «فاطمة المرضية». كان ذلك منذ خمس وعشرين عاماً. وقد كبر ودرس فأصبح اليوم شيخاً فقيهاً، حافظ القرآن. ممتلئاً ورعاً وتديناً.

اضطرت الشريفة «عائشة» للتدخل ومقاطعة الحديث، وكأنها خشيت عليه من العين. فالناس هنا يخافون الحسد والعين أكثر شيء. قالت «عائشة»:

– ما أعجب ما رأيت يا «زَّهْرَاء» في القرى والبوادي؟

قالت «الزَّهْرَاء» وقد فهمت مراد الشريفة «عائشة»:

– النساء في الصعيد. تكون الواحدة منهن في الحقل تَكِدُّ في عملها. وحين يفاجئها المَخَاضُ لا تطلب القابلة، بل تلجأ إلى غصن شجرة كبير، فتتعلق به، وتفرج رجليها فيخرج الجنين.

قالت الشريفة «عائشة» وقد اتسعت عيناها في دهشة مقرونة بالضحك:

– معقول هذا؟

– نعم يا «عائشة». ولا تحتاج للقابلة إلا فيما ندر. فالجنين في تلك البقاع يخرج بغير تعب، وبغير مجهود كبير. وليس كما هو عند المحس والقواسمة، حيث نساء كثيرات يمتن في أوقات الطلق بسبب الخِتَان الذي ينتج عنه عُسْرُ الولادة في كل مرة.

حدثتني «صُلَيْحَة» كثيراً. كانت تحكي لي عن مجالس النساء في (بُتْرِي)، وتتدفق في الحديث بعفوية ساذجة، لكنها سذاجة محببة قربتني منها، لدرجة أن أرواحنا توحدت فأصبحتُ لا أَمَلُّ حديثها ولا أريدها أن تتوقف. وانعقدت بيني وبينها محبة عظيمة. أشتاق لصُلَيْحَة. يزورني طيفها في اليقظة والمنام، وأستعيد كلماتها في خاطري كل ليلة، وأنام وطيفها يحدثني، وأحلم بها في كل حين وآن. وحين يغلبني الشوق أو يصيبني الأرق أفتح علبة رسالتها وأوقد المصباح الزيتي وأقرأ تلك الرسالة ثم أعيد قراءتها كرات ومرات!

***

الشريف داود

في ذلك الصباح كنت أقرأ رسالة «صُلَيْحَة» وذلك كعادتي، حيث أبدأ بها يومي. أذكر أني بدأتها لكني لم أكد أكملها حتى سمعت نداء الجنود يَحُثُّنَا على الخروج لاستقبال قافلة قادمة من الشرق، فأعدت الرسالة بعناية إلى علبتها، قبل أن أخرج مهرولاً.

الموكب القادم من الشرق يزحم الأفق. والغبار يسبقه نحو «أولو» بفازوغلي في ذلك الصباح البديع، من يوم الأحد السادس والعشرين من شهر شوال، لعام ثمان وعشرين وتسعمائة، الموافق السابع عشر من شهر سبتمبر، لعام اثنين وعشرين وخمسمائة وألف. البشريات سبقت قدوم تلك القافلة التجارية القادمة من مُصَوَّع. الناس فهموا أنها جاءت قاصدة السُّلْطَان «عِمَارَة»، لكن يقول من شهدها هناك إن الشريف «داود» من آل البيت الشريف جاء مسافراً ضمن هذه القافلة. وفي واقع الأمر لم يكن أحد من سكان هذه البلاد قد سمع به من قبل في هذه الدولة الوليدة، فقد اعتاد كثير من الأشراف القدوم لمقابلة السُّلْطَان «عِمَارَة» منذ إعلان قيام السلطنة. توافدوا عليه من الشرق والغرب، ومن الشمال مع قوافل التجار المسافرين، وطالبي الشهرة، وأصحاب الحرف والصناعات، والطامعين في الأطيان الزراعية، لما علموا أن السُّلْطَان يمنح حُجَج تمليك الأطيان

للعلماء ولشيوخ الطرق الصوفية، والفقهاء المهاجرين. جاءه علماء من الأندلس ومن المغرب، ومتصوفة وشيوخ وفقهاء. والسُّلْطَان كان يغري العلماء للهجرة إليه بمنحهم حُجَج وصكوك الأطيان المطرية أو المروية الخصبة، على ضفاف بحر العاديك (بحر سُوبَا).

وصل المنادي يسبق قافلة الشريف. جاء يُرْكِضُ فَرَسَهُ مبشراً باقتراب وصولها. أخبر الناس أن القافلة وصلت (سواكن) في ديسمبر من العام الحادي والعشرين بعد الخمسمائة وألف، وأنها أقامت شهرين هناك قبل أن تسلك الطريق الساحلي حتى (مصوع)، لتبقى عدة أشهر. وأنها وجدت حاميتين عثمانيتين أنشأهما السُّلْطَان «سليم» في كل من (سواكن) و(مصوع). قال إن القافلة غادرت (مصوع) منذ أكثر من أسبوع، ويتوقع وصولها مدينة (لولو) اليوم أو غداً. ولما سأله الناس عن القادم قال لابد أنه من أشراف آل البيت، لكنه ليس متأكداً فقد سمع أهل القافلة ينادونه بالشريف «داود»! وهو قد جاء على متن سفينة يمانية عابراً البحر إلى (سواكن) متوجهاً شمالاً، لكنه رأى واجباً عليه أن يزور السُّلْطَان «عِمَارَة» الذي بلغت أخباره أهل اليمن وطبقت شهرته الآفاق.

***

كان خبر قدوم أحد الأشراف ضمن قافلة من جهة الشرق أمراً غريباً لم يحدث في عهد السُّلْطَان «عِمَارَة». فقد اعتاد الأشراف القدوم

من جهة الغرب من الأندلس، ولم يكونوا تجاراً ولا يُسَيِّرُون القوافل، أو من مصر بعد أداء الحج وذلك بعد أن سمعوا بقيام السلطنة. ولذا فقد اهتم السُّلْطَان «عِمَارَة» نفسه بالأمر فور سماع الأنباء، فأمر بمقابله القافلة خارج المدينة استقبالاً يليق بالأشراف. وعلى الفور تحركت قوة من الجيش والحرس لاستقبال الشريف القادم، ومرافقته إلى داخل حدود مدينة (أولو) بفازوغلي.

خرج مُقَدَّمُ القَوَاوِيد -القائد العام للجيش- على رأس الموكب. يتبعه مُقَدَّمُ الخَيْل -رئيس سلاح الفرسان - وثلاثمائة فارس يصحبهم قادة آخرون. وخرج «مُخْتَار» سِيد العِدَّة -رئيس شئون الأسلحة- ومعه «الزاكي» مُقَدَّم السَّلْطِيَّة -قائد المسلحين بالحراب- يتقدمان جنودهما. وخرج ضاربو النَّوْبَة والطبول والصَّنْج، ونافخو الأبواق، وحاملو الأعلام والبيارق والرايات، في موكب مهيب لاستقبال الضيف. النساء رفعن أصواتهن بالزغاريد، وخرجت المدينة كلها، حباً في آل البيت. واصطف الجنود لتحية القادم. ومن ورائهم العبيد من الذكور والإناث، يغنون ويهزجون بلغاتهم، ويرقصون فرحاً وطرباً في حفل بهيج.

لم يكن الشريف مستعداً لمثل هذا الاستقبال الحافل، بل فوجيء به. فقد كان يتوقع أن يستقبله نفر قليل من أهل المدينة، أو بعض التجار. وهو الذي جاء مع القافلة المحملة بالبضائع من اليمن في طريقها إلى الشمال، ثم بلاد الفرنجة. لكن هاله الاستقبال، وفوجيء بأنهم أخرجوا

النحاس السُّلْطَاني ليضربوه احتفاء بقدومه. وكان طبلاً نحاسياً مستديراً ضخماً، مطلياً بالذهب الخالص، وسطحه الذي ينقرونه بالعصي مكسو بجلد البقر المدبوغ بعناية فائقة، ولا يضرب إلا في المناسبات العظيمة، مثل قدوم الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ» لزيارة السُّلْطَان، أو احتفالات الانتصار في المعارك.

الشريف «داود» رجل وسيم فارع الطول. له لحية قد شذبها بإتقان، وشارب يميل إلى السُّمرة. ويتميز بعينين جميلتين فاتنتين، وحاجبين كثيفين، وأنف طويل مُسْتَدِقّ، ومعقوف قليلاً. ويلبس عباءة خضراء مزركشة، وعمامة سوداء زادته جمالاً. وعند وصوله استقبله الجميع بالبِشْرِ والتِّرْحَاب. النِّسَاء قَبَّلْنَ يده، وبعضهن من الخدم والرقيق تمسحن بثوبه طلباً للبركة. والشريف لم يمنعهن، بل كان يقابل هذا بالرضى، ويَفْتَرُّ ثَغْرُهُ عن ابتسامة عريضة مقرونة بالدهشة.

ذبح الجنود ثوراً ضخماً وعدداً كبيراً من الخراف. ثم جعلوا الشريف يعبر فوق ذلك الثور المذبوح فأذعن. لكنه حين باشر العبور تعثر بثوبه، وكاد يسقط فوق تلك الذبيحة الضخمة المنتفخة. بيد أن «مختار» (سِيدَ العِدَّة) أمسك بيده كما يمسك الطفل الصغير الذي يتعثر في المشي، وساعده على العبور بسلام. أخبروه أن هذا من عاداتهم حين يكرمون الضيف القادم فيذبحون له (الكرامة)!

كان واضحاً أن الشريف «داود» شديد الاعتداد بنفسه. فحين أخذوه إلى مجلس السُّلْطَان لم ينحن مثلما اعتاد الجميع أن يفعلوا. وكاد «مالك» (سِيد القُوْمْ) – سياف السُّلْطَان – أن ينتهره فيأمره بالانحناء، مثله مثل الجميع. لكنه لم يفعل ذلك احتراماً، فاكتفي بنظرة غاضبة. فهو لم ير في حياته أي رجل لم ينحن للسلطان، بمن في ذلك أشراف البيت جميعهم، فقد كانوا ينحنون له تحيةً واحتراماً. صافحه «عِمَارَة» مبتسماً، وَشَدَّ على يده بقوة، ثم أجلسه بالقرب منه، وسأله عن رحلته وسفره. السُّلْطَان «عِمَارَة» لا يصافح القادمين في العادة، ولا يسمح لهم بالاقتراب منه. لكنه فعلها هذه المرة وسط دهشة الناس، ثم قدم للضيف شراب الليمون الممزوج بالعسل. أخذ الشراب من يد الجارية التي جاءت به وقدمه له بيده. والناس عجبوا من معاملة السُّلْطَان للضيف القادم، لكنهم سكتوا. وبعد التحية والمجاملة انفض المجلس، وذهب الوفد مع الشريف فأنزلوه في حي (لامول)، حيث بقي في ضيافة وصحبة السُّلْطَان بعد ذلك عشرة أشهر كاملة، في طواف مستمر على أرجاء البلاد، تحرسه كوكبة من الفرسان، تزيد عن الستين، تحت إمرة «أبي كامل». وفي كل مرحلة تبنى الرواكيب للاستراحة.

تضم حاشية السُّلْطَان في العادة عدداً من الاشراف آل البيت. لكن الشريف «داود» تجنب الجلوس معهم منذ مجيئه، وهم تجاهلوه بدورهم، فلم يحفلوا به كثيراً. ولاحظت أنه كان شديد الفضول كثير الأسئلة.

حرص على مصاحبتي حين علم أني كاتب السُّلْطَان، وأنني من أصل مغاربي. وسرعان ما بدأ يثرثر معي، فأخبرني بما رآه عند «عميرة» - يقصد السُّلْطَان «عِمَارَة» - من الإبل والمواشي والأغنام. وذكر لي أنه سمع أن أرضه هذه مليئة بالتِّبْرِ. وتأكد من ذلك لما رأى حُلي نسائه الذهبية. حتى أنهن كن يمشين مثقلات من كثرة الذهب على أجسادهن رغم كثرتهن. وقال لي إن نساء «عميرة» بلا عدد، ومنتشرات مثل الدجاج في الحظيرة، وتترجرج أَلَيَاتُهُنَّ حين يمشين، مثل رجرجة أثداء الخنازير البرية في فازوغلي. لم يعجبني كلامه عن السُّلْطَان ولا التقليل من هيبته بمخاطبته هكذا مجرداً دون ألقاب، أو الإساءة للأميرات زوجات السُّلْطَان، والتغزل بهن، وتشبيههن بالخنازير. لكني صمت احتراماً له فهو من آل البيت.

سألني يوماً عن تقسيمات سلطنة الفُونْج فقال لي:

- أخبرني يا «عَبْد السَّمِيع» عن هذه البلاد وعن أقسامها، فلابد أنك تعرفها جيداً وتعرف ممالكها وحدودها:

قلت له:

- نعم سوف أخبرك ياسيدي، حباً وكرامة. سلطنة الفُونْج تبدأ حدودها في الشمال من الجَنْدَلِ الثالث وتمتد إلى أقصى جبال فازوغلي جنوباً. ومن سواكن على البحر شرقاً إلى بحر أبيض وما بعده غرباً.

– وأين هي التخوم الفاصلة بينه وبين العرب؟

– مدينة أَرْبَجِي قرب المُسَلَّمِيَّة، فمنها وصاعداً جنوباً من الأرض يتبع لسلطان الفُونْج لا دخل لمشايخ قَرِّي فيه. ومنها شمالاً الى الجندل الثالث يتبع لإدارة مَشْيَخَة قَرِّي أو العَبْدلاب، ولكن تحت سيادة السُّلْطَان.

– ماهي المَشْيَخَة؟

– هذه السلطنة ياسيدي مقسمة إلى عدة ممالك ومشيخات، من عرب ونوبة وحضر وبادية. وكل ملك أو شيخ يدفع الجزية للسلطان، إلا أن له نوعاً من الاستقلال. وأما الممالك والمشيخات فهي مملكة فازوغلي، ومملكة بني عامر، ومملكة الحَلَنْقَة ومَشْيَخَة خَشْمَ البَحَرْ، ومَشْيَخَة الحَمْدَة.

– حدِّثْنِي عن المشيخات التي أخضعها القواسمة للفُونْج.

حين سألني هذا السؤال عجبتُ من أين له معرفة كل هذا، لكني عددتها له كما سمعتها من فرسان القواسمة، وهي عشر مشيخات. وكانوا يعدونها على رؤوس الأصابع فحفظتها كما سمعتها منهم وهي: مَشْيَخَة الشَّنَابْلَة، ومملكة الجَمُّوعِيَّة، ومملكة الجَعَلِيين، ومملكة المِيرَفَاب، ومملكة الرُّبَاطَاب وهذه كانوا يعدونها على أصابع اليد اليمنى. ثم مملكة الشَّايْقِيَّة، ومملكة الدُّفَار، ومملكة الخَنْدَق، ومملكة الخَنَّاق، ومملكة أَرْقُو يعدونها على أصابع اليد اليسرى.

- وما بعد ذلك من بلاد؟

- البلاد الواقعة إلى الشمال بعد ذلك هي بيد الكشاف الأتراك.

- تعني «ياووز سليم العثماني»؟

- هو ذاك!

لاحظت أن الشريف «داود» منذ مجيئه إلى السلطنة كان يحرص على مصاحبة السُّلْطَان، فيهرع للجلوس في الصفوف الأمامية، وليس بينه وبين الحجر مسافة، ويكون مقابلاً (كَكَر) السُّلْطَان كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وكان يزاحم الآخرين مقاعدهم وأماكنهم، ولم يعلم أنه بفعله هذا يخالف عادات الجلوس في حضرة السُّلْطَان. لكن السُّلْطَان «عِمَارَة» سمح له وتغاضى عنه. وهو رغم حرصه على الجلوس في الصف الأمامي إلا أنه كان قليل الكلام، فكان يستمع وينظر للحاضرين جميعاً خلسة، ويتفرس في الوجوه.

كان السُّلْطَان قلقاً لما يحدث حوله، فالبرتغاليون وصلوا سواحل بحر الجار (البحر الأحمر) من الشرق، والسُّلْطَان «سليم» احتل مصر منذ أربع سنوات، وأرسل حاميتين إلى مصوع وسواكن، رآهما الشريف «داود» وأخبر بذلك. وواضح أن السُّلْطَان «سليم» ينوي التمدد غرباً في هذه البلاد، فقد علم السُّلْطَان «عِمَارَة» من التجار الذين يسافرون إلى مصر أنه يجمع الجيوش لغزو هذه الدولة الناشئة.

في تلك الأيام تحدث الخاصة في مجلس السُّلْطَان عن قدوم الشيخ أبي محمود «عَبْد الله بن سعيد السَمَرْقَنْدِي»، هو وابنه «محمود». وكان «السَمَرْقَنْدِي» رجلاً زاهداً عالي الهِمَّة، مجتهداً عالماً بالأنساب. وكان واضحاً أن «عِمَارَة» يحبه حباً شديداً، فقد أطلق عليه اسماً خاصاً به هو (عَبْد اللطيف)! وذلك لكثرة ما سمعه يردد: (يالطيف. يالطيف) حينما يكون في المجلس. «السَمَرْقَنْدِي» أخبر السُّلْطَان عن التهديد القادم من مصر، وعَزْم «ياووز سليم العثماني» على غزو هذه البلاد. حين وصل «السَمَرْقَنْدِي» من ناحية مصر نزل هو وابنه في كوخهما خفية، فلم يشعر بقدومهما أحد، ولم يعلن عن قدومهما المعلنون كما حدث مع الشريف «داود»، ولم يستقبلوهما استقبال الأشراف. أكبرتُ فيه تواضعه الجَمّ مثلما أَسَرَنِي عِلْمُهُ الغزير ومعرفتُهُ بالأنساب.

***

كان السُّلْطَان «عِمَارَة» مهتماً بأمر السُّلْطَان «سليم العثماني»، ولما زاره الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ» رأى أن يستشيره في هذا الأمر فهو بمثابة قائد الجيوش وهو الذي يلي السُّلْطَان في حماية تخوم الدولة من جهة السافل (الشمال). وكان وصول الشيخ «جَمَّاعْ» بعد مجيء الشريف «داود» بعدة أشهر. أذكر جيداً ما دار في مجلس السُّلْطَان في ذلك اليوم. وفي واقع الأمر فإن جميع الحاضرين يذكرون الأحداث التي جرت في ذلك المجلس فقد كانت من الغرائب. السُّلْطَان «عِمَارَة» هو الذي ابتدر الحوار في ذلك اليوم

متجاوزاً (سِيدَ الكَلامْ). قال مخاطباً الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ» بعد أن استقبلوه في ذلك الصباح بضرب النُّحَاس، والأهازيج والاحتفالات، فهو قائد جيوش السُّلْطَان، وقاهر دولة عَلَوَة، وهادم عاصمتها (سُوبَا) ومدمرها:

– نفوذ بني عثمان وصل بلاد (سِكُّوت) والمحس من جهة السافل يا أبا عجيب. والعثمانيون بعد ما احتلوا مصر احتلوا (سواكن) و(مصوع) التابعتين لنا، وأقاموا فيهما حاميتين، فأغلقوا منفذنا للحجاز وبلاد الحرمين وطريق تجارتنا. كيف سمح (ياووز) هذا لنفسه أن يسمى خليفة المسلمين، وهو يغزو بلاد المسلمين، ويستولي على أرضهم بغير وجه حق؟

قال الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ»:

– واضح أن «سليم» رجل مُتَهَوِّر يا مولانا. ولا نستبعد أبداً أن يتوغل في أرضنا بعد أن وصلت قواته تُخُومَنَا من السافل والشرق مثلما ذكرتَ.

– ما الرأي والمشورة إذن يا أبا عجيب؟

ويصمت الشيخ «جَمَّاعْ» طويلاً فهو قد احتار في أمر السُّلْطَان «سليم» هذا الذي ينوي غزو بلاد الفُونْج. وهنا يتدخل «السَمَرْقَنْدِي»:

– هل يأذن لي مولاي؟

– قل يا أبا محمود. قل يا عَبْد اللطيف.

– يالطيف. هذا السُّلْطَان الجديد لا يعلم عن بلادكم إلا القليل يا مولانا. فهو يرى أن هذه البلاد ليس فيها إلا الأعاجم والوثنيون، وأنها بالنسبة لهم هي بلاد الذهب والرقيق ليس إلا. يالطيف يالطيف!

– وما الرأي يا أبا محمود؟

– الرأي رأيكم يا مولاي. لكن لو بعثتم إليه بكتاب تخبرونه فيه بحال هذه البلاد، وأنكم تدينون بالإسلام، بل وتنحدرون من قبائل عربية أصيلة، وبهذا فلا يجوز له غزوكم ولا شن الحرب عليكم، أو احتلال مدنكم وأخذ إخوته المسلمين رقيقاً وعبيداً.

– نعم الرأي يا «سَمَرْقَنْدِي» ولكن كيف سيُصَدِّقُنَا؟

– نعم. كنت سأقول حتى لا يظن أننا مجرد أدعياء، فلنبعث له مع كتابكم سِجِلاً يسرد أنساب القبائل العربية والمسلمة التي تستوطن هذه البلاد. وأنتم تعلمون يا مولاي بأن معي كتاباً من أهلنا الأشراف بمكة، فيه صحة هذه الأنساب واتصالها.

ويقاطعه «عِمَارَة» في حماس:

– جميل جميل يا «سَمَرْقَنْدِي» فلنفعل هذا. أريدك أن تعد لنا سجلاً بالأنساب. ويمكنك الاستعانة في هذا الأمر بالشريف «داود»، فهو من أهلكم الأشراف كذلك، وهو في ضيافتنا، فقد حضر إلينا مؤخراً، وأقام معنا عدة أشهر، ولابد أنه ضليع في معرفة الأنساب مثلك!

ويشير إلى الشريف «داود». فيلتفت «السَمَرْقَنْدِي» حيث أشار السُّلْطَان، لكنه يصاب بالدهشة وتتسع حدقة عينيه غير مصدق لما يرى. فقد فوجيء برجلٍ يَذْكُرُ أنه رآه في السابق ويعرفه جيداً. رآه الآن جالساً

مع القوم. لكن عينيه تتجاوزانه بسرعة تبحثان عن الشريف «داود»، ثم تعودان حائرتين حين لا تريانه!

– أين هو الشريف «داود» يامولانا؟ هل تقصد هذا الرجل؟ اليهودي «داود رُوبِينِي»؟ يالطيف. هذا ليس الشريف «داود» يامولانا. سبحان الله. ما الذي أتى بك إلى هذه البلاد يا «رُوبِينِي»؟

– اليهودي؟ «رُوبِينِي»؟ أظنك مخطئاً هذه المرة يا «سَمَرْقَنْدِي». فهذا الرجل هو الشريف «داود»، من أهل بيت سيدي رسول الله.

– لا يا سيدنا. واسمح لي. أنا أعرف هذا الرجل جيداً، فهو اليهودي «داود رُوبِينِي» من يهود اليمن! أليس كذلك يا «رُوبِينِي»؟

ويضطرب «داود» ويتلعثم حين يحاول الكلام، لكنه ينظف حُنْجُرَتَهُ فَيَتَنَحْنَحْ وَيَكْتُمُ سَعْلَةً ثُمَّ يُمْسِكُ عُثْنُونَهُ وَهْوَ يتلعثم مُرَدِّداً:

– آ.آ.آ لا لا. أنا الشريف «داود» ومن أهل البيت. أنت مخطئ يا رجل! فأنت لا تعرفني أصلاً، وأنا لا أعرفك.

وهنا يتحول «السَمَرْقَنْدِي» بجسده كله ناحية الرجل:

– آل البيت؟ أيها اليهودي الوقح؟ لا أعرفك؟ بلى أنا أعرفك وأعرف أباك وأمك. وأعرف كذلك أنك رجل دَعِيّ. وأهلُ بيتِ النبي المطهر لا يتشرفون بك بينهم أيها الكذاب الأحمق. يا مولاي السُّلْطَان هذا الرجل مُدَّعٍ. وهو من يهود اليمن وأنا أعرفه جيداً.

يتساءل السُّلْطَان:

– يهودي؟ يماني؟ معقول هذا؟

وهنا يتدخل الشيخ « جَمَّاعْ »:

– يا «داود» اصدقنا القول هل أنت حقاً من أهل البيت، أم أنك يهودي كما يقول «السَمَرْقَنْدِي»؟ إذن اسرد لنا نسبك إن كنت صادقاً!

– آ.آ. أنا لا أعرف في الأنساب. ولست ضليعاً فيها مثل هذا «السَمَرْقَنْدِي»!

– ألم تزعم قبل قليل أنك لا تعرفني؟ كيف علمت الآن أنني ضليع في الأنساب؟

– سمعتك قبل قليل تتكلم عن أنساب القبائل، وهذا لا يهمني بصراحة. لكني من أهل البيت!

– أي بيت يا يهودي! تقصد بيت «مناحم» اليهودي اليمني؟ أنسيت أن أمك كانت حتى عهد قريب تُعَلِّمُ النساء اليهوديات في اليمن أصول الكُوشَرْ، وتعاليم النِّيدَا والشَّحِيطَة؟ أنت حتى عهد قريب كنت ترتدي التَّالِيتْ اليهودي، وتسير به في الطرقات. فمتى صرت مسلماً وغيرتَ جِلْبَابَك؟ بل وادعيت أنك من أهل بيت النبي المطهر يا«رُوبِينِي»؟

نهض «رُوبِينِي» واقفاً مخالفاً في ذلك تقاليد مجلس السُّلْطَان، فزجره مالك سيد القوم بقوة ليجلس، فجلس مبهوتاً. لكنه سُرْعان ما استأذن

في الخروج وهو جالس. فأذن له السُّلْطَان وهو مستغرق في الضحك، فنهض «رُوبِينِي» أو بالأحرى هرب غاضباً، أو مدعياً الغضب. خرج يجر ثوبه وراءه وتغير لون وجهه فصار أحمر. لم أر السُّلْطَان «عِمَارَة» يضحك كما ضحك في ذلك اليوم. بل لم أره قبل ذلك اليوم ضاحكاً أبداً. لقد غطى فمه بيده، لكنه لم يتمكن من مغالبة الضحك فاهتز بدنه حتى نزل من كَكَرِ السلطنة، فجلس على الدكة مستنداً على الككر، ودَمِعَتْ عيناه من الضحك. وضحك جميع أهل المجلس بضحك السُّلْطَان، الذي قام ودخل غرفته وهو يضحك. وانفض المجلس في ذلك اليوم وسط ضحكات الحاضرين وسخريتهم من اليهودي «داود رُوبِينِي»، الذي ادعى أنه من آل البيت، وخدع الجميع حتى فضحه «السَمَرْقَنْدِي»، الذي كان بعد ذلك إذا سئل عن «رُوبِينِي» يقول: الجاسوس اليهودي «رُوبِينِي»! كان لا يتحرج من وصفه بالجاسوسية والكذب!

***

بعد تلك الحادثة الغريبة سرعان ما استأذن «رُوبِينِي» في اليوم التالي مباشرة لمغادرة البلاد كلها، فأذن له. ورغم أن الوفد الذي سيرافقه كان تحت إمرة «أبي كامل»، إلا أن السُّلْطَان أمرني بالسفر لمرافقته حتى يغادر حدود السلطنة، فقد عرف أن «رُوبِينِي» كان يجتهد في كسب ودي وصداقتي. لذا فقد أمرني أن أعرف حقيقته وما الذي جاء به إلى هذه

البلاد، وأن أتوسل لمعرفة هذا بطريقة لطيفة، دون أن أثير ريبته. لكن «رُوبِينِي» لم يحوجني للحذر، فقد حدثني بكل صراحة، واعترف لي بكل شيء حين كنا في الطريق إلى دُنْقُلَة. لم يحس بالحرج من انكشاف أمره. لكن الحزن كان واضحاً في وجهه، لكون أحلامه قد تبددت. وحين غادرنا المدينة متوجهين شمالاً نحو دُنْقُلَة قال لي:

– حين كنت في اليمن كنت أحدث نفسي كثيراً قبل أن آتي لهذه البلاد. بلاد كُوش التي ستكون هدية الله التي يقدمها لشعب إسرائيل. جنودها وملكها سيكونون ذبيحة لإسرائيل. سوف تأتي إلى أورشليم مع بقية الأمم لتجثو خاضعة لرب الجنود. هكذا قال الرب. فوعد إشعياء لا يخيب ونبوءته لا تكذب.

لكن يبدو أن «رُوبِينِي» – وقد أصابته الصدمة بما وقع من أحداث لم يحسب حسابها – أدرك خيبة أمله مبكراً، فأصبح وقحاً ومباشراً في إظهار عداوته لهذه البلاد وسلطانها وأهلها. وكان واضحاً في إظهار يهوديته. وعجبت من تسامح السُّلْطَان معه، وأنه لم يحبسه أو يعاقبه، رغم كذبه على الجميع، واحتياله، وادعائه أنه من أشراف آل البيت! ربما أراد السُّلْطَان أن يبعث برسالة لمن حوله من الممالك والسلطنات والدول بكونه متسامحاً، وأنه لا يقتل ضيوفه مهما فعلوا. السُّلْطَان يريد أن يأتيه الناس والعلماء، وخاصة أشراف آل البيت، فهو يحتاجهم في مثل هذه الأحوال

الصعبة من عمر السلطنة، التي مازالت في بداياتها. حين راجعت موقف السُّلْطَان وجدته يتصف بالحكمة والتسامح، وهما مطلوبان في الحاكم إن أراد أن يتألف الرعية ويجمع الناس حوله.

لكن «رُوبِينِي» يستحق القتل عن جدارة، فهو جاسوس وخائن. كدت أن أسأله لماذا فعل هذا، لكني تراجعت في آخر لحظة، فمثل هذا السؤال يجعله متحفظاً في الحديث معي. لأنه حينها سيظن أني اتخذت منه موقف اللوم والتقريع أو العداء، وأنا أريده أن ينطلق في الحديث من تلقاء نفسه. كنت أعلم أنه يحتاج أن يتحدث مع شخص - أي شخص - ليفضي له بما في قلبه ودواخله. وحين بدأ الكلام أيقنت أني كنت محقاً، فقد انطلق يحدثني ويخبرني بكل شيء، حتى تمنيت في آخر الأمر لو أنه سكت. حدثني عن نواياه وما يريده من أهل هذه البلاد. كان واضحاً أن الذي شجعه على الكلام معي هو أني مغاربي، ولا أشبه الناس هنا في لون بشرتي وسحنتي، أو طريقة كلامي، فظن أنه لا يهمني ما يقوله عنها، وكان مخطئاً. لكني تركته يتكلم ويثرثر. أخبرني أنه كان يكلم نفسه بصوتٍ عالٍ حين كان في اليمن، فكان يمسك بمخطوطة التوراة المكتوبة باللغة الآرامية ويردد:

- نحن أبناء الله وأحباؤه. أحفاد سبط لاوي الذين أرسلهم النبي إرميا إلى اليمن: مِزْرَاحِيمْ وصَدُوقِيِّينَ. لن نسمح لأبناء الأَمَة الوضيعة أن يسرقوا مجد أبناء الحُرَّة الرَّفِيعَة. وإذا أخرجت كوش أسباط آل عِمْرَامْ

من أرض مَقُرَة وعَلَوَة فسوف نخلفهم نحن (تِيْمَانِيمْ) من سِبْطِ لاوِي، لنقيمَ دولة يهوذا، الذي من نسل داود، على أرض كوش ومصرايم.

حكى لي أنه كان ممتلئاً حماسة وتطلعاً. حين كان شاباً عمل بالتجارة فربح، واجتمعت عنده الأموال، فاشترى الإبل وعزم على عبور البحر غرباً. هو رجل واحد، لكنه كان واثقاً أنه سوف يصنع لبني إسرائيل مجداً في بلاد كوش، التي خرقت الأنهار أرضها. قرأ التوراة منذ الصغر، بالعبرية والآرامية. كان يرتلها بألحانٍ خاصة، مختلفة عن قراءة الأَشْكِنَاز في أعياد السُّوكُوتْ والفِصْح. وَرَثَ قراءة المزامير بالألحان من آبائه وأجداده. سمعهم يقرأونها بالنطق والنغم الصحيح، دون إغفال أي تفصيل. فحين يصعدون على المنابر يقرأون أجزاءهم بأنفسهم دون مساعدة. ولا يحتاجون تشكيل الحروف. فإلقاؤهم ونطقهم للحروف أدق من الأَشْكِنَاز والسَّفَارْدِيم. أعجبته تلك النبوءة التي في الإصحاح الثامن عشر من سفر إشعياء. كانت نبوءة عن أرض كوش. كلما قرأها امتلأ زهواً وفخراً. رأى في منامه أنه أصبح ملكاً لبني إسرائيل في تلك البلاد. يسوق أهلها عبيداً فيقدمهم هدية لرب الجنود، عند جبل صِهْيَوْن.

أخبرني أنه نشأ يهودياً متديناً. وحين بلغ الثالثة عشر أرسله أبوه لحفل (بَارْمِتْسفَا)، الذي يقام للشاب اليهودي حين يبلغ الثالثة عشر، ويُعتبر بعده مكلفاً بأداء جميع الفرائض حسب الشريعة اليهودية (الهالاخَاه). ثم أرسله لتلقي العلوم الدينية. فكان يذهب لقراءة التوراة كل يوم، من

الأحد إلى الخميس من طلوع الشمس حتى مغيبها، ما عدا يوم الجمعة، فقد كان يعود لأهله عند الظهيرة. وكانت أمه تعلم النساء أصول الكُوشَر، وتعاليم النِّيدَا والشَّحِيطَة المتعلقة بالطهارة المنزلية، وأصول ذبح الحيوانات.

حين ذكر لي حكاية أمه، وأنها كانت تعلم النساء، قال لي إن صاحبك «السَمَرْقَنْدِي» هذا يعلم عني الكثير. ثم ضحك قبل أن يستمر في سرد حكايته. كان يسخر من نفسه دون أن يحس بالحرج. ثم عاد يحكي عن ماضيه في اليمن. قال لي إنه كان يذهب إلى الكنيس فيجلس على الأرض، وذلك من باب احترام المكان، وليتمكن من السجود عند الصلاة. ورث عن أجداده من يهود اليمن هيئة السجود كل يوم، في صلوات (تَخَانُون) عند الصبح والظهيرة. لكنه لاحظ أن أبناء اليهود الذين يُصَلُّون معه في ذلك المكان من أبناء القادمين من الشام لا يسجدون إلا في صلوات محددة، في (يوم كِيبُورْ) و(رُوْش هَشَنَه)، يوم السنة العبرية الجديدة، فاحتقرهم. وأصبح في كل يوم جديد يزداد يقيناً أن شعب إسرائيل من أبناء اليمن هم المعنيون بتحقيق نبوءة أشعياء. وحين كبر شرع في تحقيق حلمه.

قال لي إنه كان يُهَمْهِمُ مخاطباً نفسه كل يوم في خلواته:

– غداً أعبر البحر إلى أرض الأنهار، عبر بلاد البجاة أبناء كوش بن كنعان. أبناء عمومتنا الساميين الذين ترحلوا من بلاد العرب. بين أرض

مصرايم، وأرض ذوي الوجوه المحروقة، القاطنين على ساحل سكان الكهوف. غداً أعبر إليك يا أرض كوش.

ثم يقرأ الإصحاح الثامن عشر من سفر إشعياء:

(يَا أَرْضَ حَفِيفِ الأَجْنِحَةِ الَّتِي فِي عَبْرِ أَنْهَارِ كُوشَ، الْمُرْسِلَةَ رُسُلاً فِي الْبَحْرِ وَفِي قَوَارِبَ مِنَ الْبَرْدِيِّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. اذْهَبُوا أَيُّهَا الرُّسُلُ السَّرِيعُونَ إِلَى أُمَّةٍ طَوِيلَةٍ وَجَرْدَاءَ، إِلَى شَعْبٍ مَخُوفٍ مُنْذُ كَانَ فَصَاعِدًا، أُمَّةِ قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ وَدَوْسٍ، قَدْ خَرَقَتِ الأَنْهَارُ أَرْضَهَا).

قال لي: هل تعرف أنني الآن مشتاق للعزف على الشُّوفَارْ، والضرب على البوق؟ ثم رفع يديه ومدهما لأعلى وبدأ يغني بصوت عالٍ جداً:

(يَا جَمِيعَ سُكَّانِ الْمَسْكُونَةِ وَقَاطِنِي الأَرْضِ، عِنْدَمَا تَرْتَفِعُ الرَّايَةُ عَلَى الْجِبَالِ تَنْظُرُونَ، وَعِنْدَمَا يُضْرَبُ بِالْبُوقِ تَسْمَعُونَ. لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ لِيَ الرَّبُّ: ثم أخفض صوته فجأة وكأنه يأتي من أعماق كهف بعيد في أغوار الأرض: «إِنِّي أَهْدَأُ وَأَنْظُرُ فِي مَسْكَنِي كَالْحَرِّ الصَّافِي عَلَى الْبَقْلِ، كَغَيْمِ النَّدَى فِي حَرِّ الْحَصَادِ. فَإِنَّهُ قَبْلَ الْحَصَادِ، عِنْدَ تَمَامِ الزَّهْرِ، وَعِنْدَمَا يَصِيرُ الزَّهْرُ حِصْرِمًا نَضِيجًا، يَقْطَعُ الْقُضْبَانَ بِالْمَنَاجِلِ، وَيَنْزِعُ الأَفْنَانَ وَيَطْرَحُهَا. تُتْرَكُ مَعًا لِجَوَارِحِ الْجِبَالِ وَلِوُحُوشِ الأَرْضِ، فَتُصَيِّفُ عَلَيْهَا الْجَوَارِحُ، وَتُشَتِّي عَلَيْهَا جَمِيعُ وُحُوشِ الأَرْضِ. فِي ذلِكَ الْيَوْمِ تُقَدَّمُ هَدِيَّةٌ لِرَبِّ الْجُنُودِ مِنْ شَعْبٍ طَوِيلٍ وَأَجْرَدَ، وَمِنْ شَعْبٍ مَخُوفٍ مُنْذُ كَانَ

فَصَاعِدًا، مِنْ أُمَّة ذَات قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ وَدَوْس، قَدْ خَرَقَتِ الأَنْهَارُ أَرْضَهَا، إِلَى مَوْضِعِ اسْمِ رَبِّ الْجُنُودِ، جَبَلِ صِهْيَوْنَ(.

***

بقيتُ صامتاً أستمع متعجباً، وتركته يتحدث. قال لي إنه ركب سفينة يمانية. لم يسبق له أن ركب البحر قبل هذا اليوم. أصابه دوار البحر فأفرغ كل ما في جوفه من طعام. سخر منه البحارة، لكنهم كتموا ضحكاتهم. فهمها من نظراتهم الماكرة، وهمساتهم الخبيثة. كَبَتَ كبرياءه فلم يتكلم طوال الرحلة. عَبَرَ البحر ببضاعته، ووصل سواكن. اشترى الإبل من البجاة، ونقلها بالسفينة إلى مصوع، ثم حمل عليها البضاعة. لم يبق طويلاً. كان متلهفاً لمواصلة الرحلة. سار عبر بلاد سكان الكهوف. (مصوع) مدينة كبيرة وعامرة بالسكان، لكن بعد ذلك لا شيء في الطريق. بين الفينة والفينة كان يرى بعض الخيام المتناثرة هنا وهناك، وقد نسجت من الشعر، وسقفت بجريد النخل وسعف الدوم. لكنها فارغة خاوية ولا أثر لسكانها. لا توجد حياة هنا. ربما تمكن بعض سكان هذه البقاع من البقاء، لكنه مكان مهلك قاتل، ويستحيل العيش فيه لغير البجاة. ليس المكان مثل اليمن. فعندما تشرق الشمس هنا تتوهج التلال والصخور والسهول الرملية، فتصلي المكان بالحرارة. لكن توجد مسحة ساحرة من جمال يختبيء تحت حرارة الشمس. الألوان تتغير بتغير انعكاس الضوء والسراب والظلال التي يرسمها انحسار النهار.

الشروق والغروب في هذا المكان هما من اللحظات التي لا يمكنك وصفها، كما لا يمكنك نسيانها أبداً. لن تمل من النظر حولك عند الصباحات والأصائل. الهدوء يضفي على المكان هيبة وسحراً. تستطيع أن تتمدد في الأمسيات تحت الهواء الجاف الذي يهب في هذا المكان، وتنام في أي وقت تشاء. وحين تستيقظ مرة أخرى عند الفجر تعلم أن ذلك النسيم الجميل هو الذي أيقظك لتتنسم هواءه، وتملأ رئتيك به قبل أن تشرق الشمس. هذا النسيم العليل كأنه تعويض عن حر النهار الذي سوف تصليك به الشمس عند ارتفاعها في كبد السماء. وسيلة التنقل الوحيدة هي ظهر الإبل، أو السير على قدميك. البدو الهدندوة ذوو الشعر الكثيف الأشعث يظهرون من السراب، ثم يختفون مثل الضِّبَاع. لا تدري أين ذهبوا لكنك متأكد أنهم يراقبونك من مكان ما، هناك عند التلال، أو خلف كثبان الرمال الصفراء المتلألئة. في مصوع استأجر عدداً منهم. كانوا نحاف الأجسام خفاف الحركة، ذوي أعين براقة، وشعر كثيف مكور فوق رءوسهم مثل شوك القنافذ. أسيافهم لا تفارق جنوبهم، يتحدثون بلهجتهم الخاصة، رغم أن حديثهم قليل. يكتفون بالقليل من الطعام، والكثير من التمر.

أخبرني أنه ذاهب إلى بلاد الإفرنج، لكنه سيعود يوماً ما. همس لي بأنه نبي، وأنه المَسِيَّا المُنْتَظَر. لم أضحك حتى لا أجرح كرامته، لكني تذكرت سخرية «السَمَرْقَنْدِي» منه. كانت سخرية موجعة. بقيت أغالب

الضحك، لكن حين غلبني خَلَطْتُهُ بالسُّعَال حتى لا أحرجه فيمتنع عن الحديث معي.

***

قال لي إن أعجب ما رءاه في هذا المكان هو بحر (سُوبَا) والناس حوله. لكن هيبة السُّلْطَان «عِمَارَة» أدهشته، وسطوة الجنود ونفوذهم في سياسة الدولة.

قال لي إن هذا الأَسْوَدَ «عِمِيرَة»، يحكم السُّودَ والبِيضَ معاً. «رُوبِينِي» ينطق اسم السُّلْطَان «عِمَارَة» بالإمالة فيقول «عِمِيرَة» وكأنها قراءة وَرْشٍ! ولم أَدْرِ هل قصد أن ينطقها هكذا للتقليل من شأن السُّلْطَان، أم هي لهجة أهل اليمن، فالإمالة تعني التقليل. قال لي صحبت ملككم هذا عدة أشهر كما تعلم، لم يُقِمْ خلالها، بل بقي في طواف مستمر، تحرس موكبه كوكبة من الفرسان، تزيد عن ستين فارساً، تحت إمرة «أبي كامل» هذا، الذي يرافقنا الآن. أخبرني عن سرعة بناء الرواكيب للاستراحة كلما نزلوا في مرحلة من المراحل. لم يكن يظن أن في حاشية السُّلْطَان مثل هذا العدد من الأشراف آل البيت. أخبرني أنه اضطرب جداً، فقد فوجيء بهم وخاف أن ينكشف أمره. قال لي: لكن «السَمَرْقَنْدِي» جَرَّدَني من كرامتي. فعندما تكلم رأيت نفسي عارياً من كل الثياب في مجلس السُّلْطَان، وأوشكت حينها أن أبول على ثيابي.

هَالَهُ أن السُّلْطَان «عِمَارَة» يملك من الأبل والمواشي والأغنام أكثر من أي رجل رآه يوماً ما، وأن هذه البلاد ملأى بالتبر. فقصره مليء بالذهب، وحلي نسائه الذهبية تثقل حركتهن، فلا يكدن يتحركن من ثقل الذهب، وكن سعيدات بذلك.

قال لي إن «عميرة» له نفوذ كبير، بسطه على هذه الأرض الشاسعة. فالجميع يخشاه ويخاف منه، وأن كثيرين جاءوه من الآفاق طامعين فيما عنده من أموال وذهب. وهو ينفق منه بسخاء على من حوله.

قال لي إن «عميرة» لا يستقر في مكان واحد، فهو يتنقل باستمرار، يتفقد رعاياه، وهذه صفات الملوك حقاً. وأن كثيراً ممن يأتونه ويزعمون أنهم من آل البيت كذابون، فهم طامعون فيما عنده من أموال. لكن العجيب هو أن السُّلْطَان يقابلهم بالترحاب والتكريم، فهل هذا غباء أم تغابٍ من السُّلْطَان؟ لكنه متأكد أن «عميرة» رجل شديد الذكاء.

بقي «رُوبِينِي» يتكلم طوال الطريق. يظهر سخطه من الرحلة، وتبرمه بالطريق، وحرارة الشمس، وَعَنَتِ السفر. وأحياناً يُرَتِّلُ من المزامير، لكنه يخفض صوته. وفي أحيان أخرى يرفع عقيرته بالغناء، أو الحداء بكلام غير مفهوم. وفي مرة أخذ يتغنى بكلام بالعبرية، ثم قطعه فجأة وقال لي:

- هل تعرف معنى هذا الكلام؟

- ومن أين لي أن أعرف فأنت تغني بالعبرية.

– أنا أقرأ نشيد الإنشاد يا مغربي!

– وما هو نشيد الإنشاد يا «داود»؟

– هو نشيد في التوراة لسليمان الحكيم.

– تعني النبي سليمان؟

– هو ملك وليس نبي! لكن أنتم المسلمون تقولون إنه نبي.

قلت له غاضباً محنقاً من قلة حيائه:

– هو نبي غصباً عنك يا يهودي!

لم يُعِرْ كلامي أي انتباه. وبدلاً من ذلك أخذ يرتل بالعربية، فعلمت أنه قصد أن يُشْرِكَني معه في فهم المعاني ليغيظني. وأنه يرد عليَّ بقراءة إصحاحات التوراة:

– لِيُقَبِّلْنِي بقُبْلاَت فَمِه، لأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْر. لِرَائِحَة أَدْهَانكَ الطَّيِّبَة. اسْمُكَ دُهْنٌ مُهْرَاقٌ، لِذلِكَ أَحَبَّتْكَ الْعَذَارَى. اُجْذُبْنِي وَرَاءَكَ فَنَجْرِيَ. أَدْخَلَنِي الْمَلِكُ إِلَى حِجَالِه. نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ بِكَ. نَذْكُرُ حُبَّكَ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْر. بِالْحَقِّ يُحِبُّونَكَ. أَنَا سَوْدَاءُ وَجَمِيلَةٌ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ، كَخِيَام قِيدَارَ، كَشُقَقِ سُلَيْمَانَ. لاَ تَنْظُرْنَ إِلَيَّ لِكَوْنِي سَوْدَاءَ، لأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ لَوَّحَتْنِي.

قلت له:

– هل أنت متأكد أن هذا النشيد هو من التوراة، وأنه كلام مقدس؟

لكنه لم يرد عليَّ ، ومضى يتغنى، فقلت له:

– كيف تحفظ مثل هذا الكلام يا «رُوبِينِي»؟ كله غزل فاضح وصريح!

استمر في إغاظتي. لم يتوقف أبداً، ولم ينظر ناحيتي. لكنه كان بين الفينة والفينة يَسْتَرِقُ النظر بطرف عينه، وهو يغني، ليقرأ تعابير وجهي، فيعرف أني مغتاظ فعلاً. كان يمتع نفسه بإغاظتي:

– قَدْ دَخَلْتُ جَنَّتِي يَا أُخْتِي الْعَرُوسُ. قَطَفْتُ مُرِّي مَعَ طِيبِي. أَكَلْتُ شَهْدِي مَعَ عَسَلِي. شَرِبْتُ خَمْرِي مَعَ لَبَنِي. كُلُوا أَيُّهَا الأَصْحَابُ اِشْرَبُوا واسْكَرُوا أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ.

– اسكروا؟ ما هذا الكلام يا «رُوبِينِي»؟ الكتاب المقدس يقول اشربوا واسكروا؟ لا أصدق هذا!

لم يرد عليّ ومضى يترنم، فأيقنت أنه يتعمد إغاظتي فعلاً:

– حَبِيبِي مَدَّ يَدَهُ مِنَ الْكَوَّةِ، فَأَنَّتْ عَلَيْهِ أَحْشَائِي. حَفَظَةُ الأَسْوَارِ رَفَعُوا إِزَارِي عَنِّي.

قلت له:

– بالله عليك اسكت فهذا كلام داعر!!

قال لي:

– بل أنت الذي يجب أن يسكت. فأنتم تقولون إن هذا النشيد فيه وصف نبيكم باسمه وصفته.

صرخت فيه فزعاً:

- أين هذا يا «داود»؟

- في الإصحاح الخامس!

- مع الكلام الداعر؟ هذا ما لن أصدقه. تغن به إذاً حتى أسمعه.

- لا لن أفعل. حتى لا تقول إنك سمعته من «رُوبِينِي». اذهب واقرأه بنفسك!

أعجبني أنني استفززته ليخبرني بما عنده، فمضيت في المداهنة والاستفزاز ليخبرني:

- ليس عندي كتابكم. بالله عليك تَغَنَّ به، ولن أقول إني سمعته منك. ألست تزعم أننا الذي نقول هو في كتابكم؟ وأنت تحفظه؟ إذن أسمعني هذا القول، حتى ولو بغير ترنم، فأنا إلى الآن لم أصدق كلمة واحدة مما تقول.

- عجباً لك. منذ قليل كنت تعترض على غنائي، وتقول لي اسكت. وها أنت الآن تكاد تجثو تحت قدمي لأستمر في الغناء! حسناً سوف أُسْمِعُك ما تريد. سوف أقوله بالعبرية. ولكن إياك أن تقول إنك سمعته من «رُوبِينِي». شْمَاعْ يا «شمعون»:

- اسمي «عَبْد السَّمِيع» فكيف أصبح «شَمْعُون» الآن ياوقح؟ وعلى العموم لا يهم. أَسْمِعْنِي.

– شْمَااعْ يا «شمعون»! كلام بالعبرية، ومعناه اسمع يا «عَبْد السَّمِيع» شماع وصف نبيكم: (حَبِيبِي أَبْيَضُ وَأَحْمَرُ. مُعْلَمٌ بَيْنَ رَبْوَةٍ. رَأْسُهُ ذَهَبٌ إِبْرِيزٌ. قُصَصُهُ مُسْتَرْسِلَةٌ حَالِكَةٌ كَالْغُرَابِ. عَيْنَاهُ كَالْحَمَامِ عَلَى مَجَارِي الْمِيَاهِ، مَغْسُولَتَانِ بِاللَّبَنِ، جَالِسَتَانِ فِي وَقْبَيْهِمَا. خَدَّاهُ كَخَمِيلَةِ الطِّيبِ وَأَتْلاَمِ رَيَاحِينَ ذَكِيَّةٍ. شَفَتَاهُ سُوْسَنٌ تَقْطُرَانِ مُرًّا مَائِعًا. يَدَاهُ حَلْقَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، مُرَصَّعَتَانِ بِالزَّبَرْجَدِ. بَطْنُهُ عَاجٌ أَبْيَضُ مُغَلَّفٌ بِالْيَاقُوتِ الأَزْرَقِ. سَاقَاهُ عَمُودَا رُخَامٍ، مُؤَسَّسَتَانِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ إِبْرِيزٍ. طَلْعَتُهُ كَلُبْنَانَ. فَتًى كَالأَرْزِ. حَلْقُهُ حَلاَوَةٌ وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ. هَذَا حَبِيبِي، وَهَذَا خَلِيلِي، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ.

– أَعِدِ المقطع الأخير هذا الذي فيه اسم النبي بالعبرية يا «رُوبِينِي»! أرجوك.

– اسمعه بالعبرية يا «شمعون»: حِكّو مَمْتِكِّيمْ فِخُلّو مَحَمَدِيمْ زِاه دُودِي فِزا ريعِي بِنوت يِرُوشَالاَيِم

حين نطق اسم «محمديم» أصابتني رعشة واهتز جسمي. فهذا الوصف الذي ذكره ينطبق على وصف النبي محمد بلا أدنى شك. «رُوبِينِي» نفسه بوغت بعد أن ذكر لفظ «محمديم» فأدرك أنه ارتكب خطأً مميتاً! فسكت بعد ذلك مدة طويلة، ثم قال لي فجأة:

– شماع يا «شمعون»: «مُحَمَّدِيمْ» بالعبرية لا تعني اسم نبيكم، ولكن تعني الجمال والحلاوة والاشتهاء. وأنا أحببت أن استفزك فقط! ليس غير.

ثم لم يقل بعد ذلك شيئاً أبداً. صمت في حزن واضح. كان واجماً ولم ينظر ناحيتي، وبقي مطرقاً برأسه مسافة طويلة، ثم أخذ ينظر إلى السهوب الممتدة أمامنا. كان حزيناً ومنكسراً. لكنه تركني أغوص في مستنقعات الحيرة وبحار التيه. لم أكلمه بعد ذلك وبقي طول الرحلة يتجنبني. ويمتنع عن الكلام معي، وإذا قربت بعيري منه يحث خطى بعيره ليبتعد عني.

عندما وصلنا دُنْقُلَة مكثنا يومين، ثم ودعته وعدت مع ركب «أبي كامل». وبعدما وصلنا ديار القواسمة علمنا أن السُّلْطَان «عِمَارَة» قد نقل مقر الملك إلى بلدة (سِنَّارْ) لتكون هي عاصمة ملكه ومقر سلطانه.

أمر الشيخ «جَمَّاعْ» بالاحتفال بنا في قَرِّي عندما مررنا به في طريق عودتنا من دُنْقُلَة. كان يريد أن يظهر للسلطان احتفاءه بموكبه، حتى وإن لم يكن الموكب بمعية السُّلْطَان. في قَرِّي يتم جمع الناس بواسطة رجل يسمى (العُكَّاز)، وهو رجل يحمل عصا خاصة يمنحها له الملك وتكون رمزاً للسُلطة، تخوله التحدث باسم الملك ونيابة عنه فيجمع بها الرعايا. ولذلك أطلقوا عليه (العُكَّاز) كناية عن الأداة التي يحملها ليجمع بها الناس، فهي أهم من اسم الرجل نفسه. ومهما كان اسمه فما دام يحمل هذه الأداة فاسمه (العُكَّاز). معظم سكان قَرِّي لهم صلة بالبلاط. لاحظت أن القواسمة يتميزون بالترابط الأسري والعشائري القوي، وليس ذلك مثل ما هو عند تجمعات قبائل الفُونْج في منطقة فازوغلي ثم

سِنَّارْ. وذلك نظراً لتعدد القبائل وكثرتها وتنوعها في تلك المنطقة. الملك الشيخ «جَمَّاعْ» يستطيع حشد أنصاره وأعوانه في المدينة بسرعة كبيرة، في حين السُّلْطَان «عِمَارَة» لا يمكنه فعل ذلك في سِنَّارْ، فالاستدعاء العام ليس متيسراً ولا ممكناً مثلما هو عند القواسمة. ولذلك فهمت معنى أن الملك الشيخ «جَمَّاعْ» هو قائد الجيوش في هذه البلاد بأجمعها.

عند الأصيل بدأ الضرب المتواصل على النحاس في قَرِّي، وبدأ الناس يتجمعون. وذبحوا جملاً ليطعموا الناس من لحمه ويأكلوا كبده. ثم نصبوا مجلس الملك وتوافد عليه الناس يحيونه. ولاحظت أن حوله عدداً من غير العرب فقد رأيت الهمج وبعض الفُونْج. كان العرب يحيونه بقولهم: (جَادْ سِيدِي) أما الفُونْج فيقولون: (قَارْ مُورْ) ومعناها (حفظك الله). ثم بعدما يحيونه يصطفون بسيوفهم ويبدأون العرضة، فيمثلون حركات القتال، ويتقافزون صامتين على وقع ضرب النحاس. لكن بعضهم يطلق أحياناً صيحات عالية قصيرة فيقول (أوهوووو)، أو يقول (هَلَّا هَلَّا)، فيدخل هذا حماساً عجيباً في أوساط الراقصين. والرجل الضارب على النحاس يربط وسطه بحزام، ويمسك عصاتين قصيرتين، يوقع بهما ضرباته، ثم يقوم فجأة بتغييرها، فيغير الرجال قفزاتهم وفقاً لذلك. لاحظت أن الضارب على النحاس يتمتع بمهارة فريدة، وقدرة على التحكم في وزن ضرباته، فيكاد ذلك النحاس ينطق كلاماً مفهوماً. ولاحظ الوزير «عامر» حيرتي وانتباهي لما يحدث فقال:

– فهمت كلام النحاس يامغربي؟

قلت مندهشاً:

- وهل النحاس يتكلم؟

ضحك بصوت عال ثم قال:

- نحاس القواسمة يفهم ويسمع ويتكلم ويغضب ويحزن ويرضى يامغربي. نحاسنا فارس من الفرسان. والله لولا مخافة الله لجَلَّدْنَاه من جلود أعدائنا وليس من جلود البقر. نحاسنا عِزّ القبيلة. نحن القرينات لما ننوي نذل العدو وندوس كرامته نأخذ نحاسه عندنا.

قلت له:

- وماذا يقول هذا النحاس الفارس الآن؟

قال لي:

- هذه الضربة التي تسمعها الآن اسمها الضربة (التَّقِيلَة). والنحاس يقول:

الكَبْـدَهْ كَبْـدَةْ أَلْبلْ   مَعْرُوْكَـةً بالفلْفـلْ
عَبْـد الله مُقَدَّمْكُـمْ   شَرْدَامَـاً يْشَرْدِمْكُمْ

قلت له: عَبْد الله من؟

قال وقد عقد حاجبيه غير راض عن سؤالي:

- مقدمنا الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ»! من غيره؟

ثم سكت برهة قبل أن يرد على الشق الأخير من سؤالي:

- شرداماً يشردمكم يعني يفرق جموعكم (شراذم) والخطاب للأعداء.

السَمَرْقَنْدِي

بعد عودتي من الرحلة مع «أبي كامل» مصاحباً اليهودي «داود رُوبِينِي» رأيت أن أزور «السَمَرْقَنْدِي» يوماً، بعد أن انتقل إلى سِنَّارْ. ذهبت إليه في كوخه المتواضع حيث وجدته منهمكاً في الكتابة. لكنه فور أن رآني قام واستقبلني ورحب بي، ثم أجلسني على سريره وتلطف معي في الترحيب. كنت أعلم أنه ليس طامعاً في شهرة ولا مال أو منصب. فقلت له:

– ما الذي جاء بك إلى هذه الأصقاع يا أبا محمود وأنت تعلم أنها أدغال نائية في الأرض وأن أهلها بدائيون؟ خاصة وأنت رجل عالم نحرير؟

ابتسم في حياء لكنه قال لي بحماس كبير:

– سأصدقك القول. لقد سمعت بقيام هذه الدولة أيام كنت في مكة أؤدي الفريضة. ثم لما زرت اليمن في رحلة الشتاء، سمعت اليهود هناك يتحدثون عنها بحرقة وألم، ويقولون إنها أرض الذهب الكثير، وفيها مال سائب في أيدي الخنازير. (يقصدون هؤلاء الفُونْج). ولابد أن يستولوا عليه منهم بعد أن يأخذوهم سبايا، ويقدموهم قرابين للإله عند جبل صهيون!

قلت في نفسي يالطيف. إن هؤلاء اليهود يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ثم لم أعبأ بكلامهم لكونهم قلة ومستضعفون في اليمن نفسها، ولا يمكنهم محاربة قومهم أهل اليمن، ناهيك عن هذا السُّلْطَان القوي الذي طبقت شهرته الآفاق. لكني ذهبت إلى بيت المقدس في رحلة الصيف، فسمعت النصارى يتحدثون عن هذه الدولة الوليدة ، والحقد يملأ قلوبهم، فهم يظنون أن العرب والفُونْج من أهل هذه البلاد قد تمالأوا على النصارى فغصبوا مُلْك الدولة النصرانية في علوة، وقتلوا البطريرك، وهدموا الكنائس. ولما علمت أن اليهود والنصارى قد اجتمعوا على بغض هذه الدولة الوليدة، التي اختارها الله لإحياء الدين، بعدما سقطت دولة المسلمين في بلاد الأندلس على أيدي النصارى، عرفت أنها دولة حق، وذلك لاجتماع اليهود والنصارى على بغضها. فأسرعت بالمجيء، أنا وابني «محمود»، لننصرها وندافع عنها. ومنذ مجيئي وأنا أدرس أحوالها، وأعمل من أجل استقرارها، وأدعو الله أن يحفظها من الطامعين، ويعوض المسلمين بها خيراً مما ضاع منهم في بلاد الأندلس.

– لاحظت أنك تعرف الكثير عن أنساب القبائل العربية هنا يا أبا محمود.

– وغير العربية، فهم الكثرة الكاثرة في هذه الأصقاع من الصعيد (الجنوب)، والعرب بينهم قلة. ولو شئت لاخترت البقاء مع عرب القواسمة في السافل (الشمال)، لكن بقائي هنا أكثر فائدة. ولذا فقد رأيت

أن ألزم السُّلْطَان لأدفع عنه المؤامرات، وأذب الطامعين. ألم تر ما حدث مع «رُوبِينِي»؟ ولكن دعني الآن أخبرك عن هؤلاء الفُونْج وأصلهم، بما أنك ستقيم بين ظهرانيهم:

– بالفعل. فمعرفتي بهم مازالت قليلة.

– هم جملة من القبائل التي نزلت من جبال الشرق فسكنوا (لولو)، قبل أن ينزحوا مع السُّلْطَان إلى هذه المدينة (سِنَّارْ). («السَمَرْقَنْدِي» ينطق لولو بتفخيم اللامين تماماً مثلما ينطقها أهلها).

السُّلْطَان الحالي بعد ما تولى أمرهم غَيَّرَ كثيراً من عاداتهم وأعرافهم، وجمع حوله كثيراً من الأجناس والقبائل، مثل الهَمَج والإِنْقَسَنَا، والكَدَالو والقِمِزْ، والأُدُكْ والكُومَا، والوَطَاويط والفُولَّاني (الأَمْبَرَرُو والفَلَّاتا والهَوْسَا)، مع الجَافُون والمُورِي، والدُّوقَّا والبَرْتَا، والبُرُون والبَرْنُو، وبَلْدَقُو والجَبَلاوِين، والحَمْدَة والرَّقَارِيق، والزَّبَالْعَة والزَّبَرْطَة، والقَبَاوِين والسَّرْكَمْ. ولذلك تجد فيهم المسلمين مع الوثنيين، بل وتجد بينهم العرب كذلك. ولهذا فقد اختلطت العادات والتقاليد.

– إني والله تعجبني معرفتك الواسعة بهذه القبائل يا «سَمَرْقَنْدِي». ولكن قل لي ما هي علاقة السُّلْطَان بهؤلاء الذين حوله في البلاط؟

– لابد أنك لاحظت أنهم قريبين منه جداً. والسبب هو أن معظم رجال البلاط هم أصهار السُّلْطَان، فهو يزوج نساء أسرته لهؤلاء الرجال

ليضمن ولاءهم. وحتى القواسمة في السافل أخذوا كثيراً من أعراف الفُونْج في مصاهرة الملوك وزعماء البلاط. فشيخ القواسمة يزوج نساء أسرته لتابعيه من الحكام، مثل ملك شَنْدِي، وكذا شيوخ قَرِّي، وخَشْمَ البَحَرْ والتَّاكَا، متزوجون من نساء الأسرة السُّلْطَانية الفُونْجية. وذلك بالرغم من حذرهم منهن، لأنهن يخدمن مصالح السُّلْطَان، فيعملن جاسوسات لصالحه، وينقلن نشاط وأخبار أزواجهن للسلطان إن أحسسن منهم تمرداً عليه! أما رجال البلاط الأقل درجة في بلاط السُّلْطَان فيمنحون بناتهم وأخواتهم زوجات لرؤسائهم المباشرين من الحكام. وبذلك يكن بنات خؤولة للسلطان فيما بعد. لكنهم يعتبرون الزواج خارج الأسرة النبيلة أو من المحظيات والسُّرِّيَّات تدنياً اجتماعياً.

– لاحظت خلال وجودي قريباً من السُّلْطَان أن له عدداً كبير من الزوجات يا أبا محمود!

– أخبرني مُقَدَّمُ السَّوَاكْرَة – القائم على شئون السُّلْطَان – أن للسلطان ستمائة زوجة يا «عَبْد السَّمِيع» ! ولزعماء وحكام الأقاليم أكثر من مائتي زوجة، ولحكام المقاطعات نحو ثلاثين زوجة.

– ياللهول! هذا غير معقول.

– لا تعجب فقد أُصِبْتُ بنفس الصَّدْمَةِ مِثْلَكَ حين أخبرني. فرغم كونهم مسلمين، إلا أنهم لا يهتمون بأحكام الشريعة التي تحل للرجل

أربع نساء فقط. فهذا سلطانهم المسلم يتخذ ستمائة زوجة! ورغم أني لم أصدق أنهن ستمائة، لكن السُّلْطَان قد تجاوز الأربع بأضعاف مضاعفة. هذا أمر مؤكد.

– ولكن ما العلة في هذه الكثرة من الزوجات يا أبا محمود؟

– سألتُ مُقَدَّمُ السَّوَاكْرَة قبلك مثل هذا السؤال، فأجابني أن السُّلْطَان حريص على توريث الملك لأبنائه الذكور الذين من صلبه. ولهذا فكلما كثرت نساؤه كثر احتمال مجيء الولد منهن، إضافة إلى أنه يتزوج من بنات كل قبيلة ليضمن ولاء أهلهن له، حين يصيرون أصهاره. ولهذا فتتنافس القبائل في مصاهرة السُّلْطَان ليكون وريث العرش منهم. وإذا أنجب الذكور يمنح بعض الزوجات لأتباعه تخفيضاً لهذا العدد إلى الحد المقبول من الأبناء، فلا يصعب التخلص منهم عند تولي السُّلْطَان الجديد الحكم.

– يتخلص من أبنائه؟ عجيب هذا يا أبا محمود. ولماذا يفعل ذلك؟

– اعتادوا أن العدد الزائد من الأبناء (القواويد) إخوة السُّلْطَان يُعدَمون عند اعتلاء السُّلْطَان الجديد كرسي السلطنة، حتى لا ينافسوه. إلا أن الأرابيب منهم وهم أبناء النساء من طبقة النبلاء الأدنى يسمح لهم بأن يعيشوا ولكن درجاتهم ورتبهم وصفاتهم كنبلاء تموت معهم حين يموتون، ولا يتم توارثها بين أبنائهم إلا في حالات نادرة، عندما يتزوج أحدهم بإحدى الأميرات بنات السُّلْطَان.

- هذه معلومات مدهشة يا أبا محمود!

- بالفعل. والسُّلْطَان يمتلك بالإضافة إلى هذا العدد الهائل من الزوجات، عدداً آخر غير محدود من السُّرِّيَّات والمحظيات، اللاتي يجاء بهن نتيجة الغارات على المناطق في الجبال والأدغال، إلى الجنوب من سِنَّارْ. ويتقرب بهن القواويد هدايا للسلطان، فيتنازلون له عن أنصبتهم من السبايا تقرباً منه. وقد يبيع السُّلْطَان كثيرات منهن. ولكن هؤلاء المحظيات والسريات إن حملن منه لا يعتبر أولادهن من ذوي الرتب والدرجات، ولا يحملون صفات النبلاء، ولا يطمعون في تولي الملك بعد موت السُّلْطَان.

- ألم تقل لي إن هؤلاء السريات والمحظيات غير مسلمات؟

- نعم، وهو يتسرى بهن رغم عدم إسلامهن، بل وينجب من بعضهن. وقد لا يقرب بعضهن حتى يموت. من يطيق معاشرة مئات الزوجات والسريات يا مغربي؟

لكني عندما سألت «السَمَرْقَنْدِي» عن العلماء أين هم، ولماذا لا يفعلون مثلما يفعله هو في توعية الناس وتعليم الدين قال لي:

- دونك الأرباب «إدريس بن محمد». هل تعرفه؟

قلت له:

- لم أر مثله في زماننا هذا. «إدريس الأرباب» رجل مليء علماً وورعاً وحكمة.

قال لي:

– هو كما قلت وأكثر، فهو رجل مبارك. والناس رأوا بركته وصلاح حاله فتبعه كثير منهم. وفوق هذا فقد تبوأ مكاناً علياً عند السُّلْطَان، فهو يحظى بتقديره، وهو كريم عطوف على مُرِيديه، زاهدٌ في أكله وزِيِّه. وتلاميذه يرون أنه لا يقل عن الملوك في شيء، فهو سلطان في العلم، مثلما أن «عِمَارَة» سلطان في الحكم. أنا زرته وناقشته في بعض الأمور الفقهية فوجدته بحراً.

– وأين هو من تعليم السُّلْطَان الدين؟

– لن تعجب إن قلت لك إن «إِدْرِيسْ» يعتبر حكام الفُونْج زَنَادِقَةً لمخالفتهم الشريعة، وخاصة في أمر تعدد الزوجات، وشرب المُسْكِر. ويعتبر العوام منهم زنادقة كذلك، لأكلهم الخنزير وتعاطي السحر واستحلال الفروج والمحرمات. لكنه رجل حكيم، يعرف كيف يكون التدرج في تأليف قلوبهم، ويعرف ترتيب أولويات الدعوة بالحسنى، فهو لا يجاهر بأحكامه هذه أبداً إلا للعلماء. وما قالها لي إلا بعدما علم أنني لن أخطئ فهمه، فقد نظر فعلم أنه بصلاح السُّلْطَان تصْلُحُ الرعية، فبذل مجهوده كله مع السُّلْطَان. حين قابلتُهُ في تلك المرة حدثْتُهُ عن السُّلْطَان «عِمَارَة» ووجوب نُصْرَتِهِ فقال لي:

– «عِمَارَة» رجل تقيده العادات، وتحكمه التقاليد والأعراف، فتضطره لمخالفة بعض قواعد الشريعة بالرغم منه، وإلا قتله قومه، فهو

مكره وقلبه مطمئن بالإيمان. إلا أنه يستطيع أن يدخل الناس بسببه في الدين. فهو حريص على العلم والعلماء، وعلى الشعائر. ولو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها فيه. وسوف أسعى للجمع بينه وبين الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ»، ففي هذا قوة للدين والدولة، وصلاح للمسلمين. ولأنه لو اجتمع العرب المسلمون مع الفُونْج فسوف يصلح إسلام الفُونْج ومن حولهم، ويصلحون بقية الرعية بصلاحهم.

وعجبت من حكمة هذا الشيخ الشاب، وفهمه في الدين، ومناصرته للسلطان. قال لي مرة: (لو كان «عِمَارَة» فاجراً ففجوره عليه وعدله للرعية. وأنا حريص أن يزداد عدله بين الرعية).

قلت للسَمَرْقَنْدِي:

- حدثني الوزير «عامر» - وهو المقرب من الملك الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ» وكاتم أسراره- أن الشيخ «إِدْرِيسْ» قال له إن الخلافات التي بدأت بين عرب القواسمة والفُونْج وهذه الاتهامات المتبادلة بينهما لا يمكن احتواؤها إلا بأن يعقدا حلفاً بينهما. ثم أخبرني «عامر» أن الملك «عِمَارَة» كان قد عقد حلفاً مؤقتاً مع الشيخ «جَمَّاعْ» على أن يغيروا على مملكة علوة، ولما انفرد الشيخ «جَمَّاعْ» دون الفُونْج بذلك اتهمه الفُونْج في مبدأ الأمر بأنه أغار على (سُوبَا) بهدف السلب والنهب، أو للاستيلاء على الأرض والأطيان، بالرغم من أن الشيخ «جَمَّاعْ» أمر جنوده ألا

يأخذوا من غنائم (سُوبَا) شيئاً. وقد التزم جنوده بأوامره، لكنه لم يسلم من لسان الفُونْج. كما أنه لم يقم بالاستيلاء على أطيان النوبة والعنج، وهو يعلم أن الفُونْج كانوا يطمعون في أراضي (سُوبَا) وأطيانها. ولم يخب ظنه فيهم فقد استولى «عِمَارَة» بالفعل على تلك الأراضي، فهو السُّلْطَان على الفُونْج وعلى «جَمَّاعْ» نفسه كما هو معلوم.

قال لي:

- لكن الفُونْج يعلمون أن الشيخ «جَمَّاعْ» دخل (سُوبَا) فدمرها انتقاماً للعرب الذين غدر بهم ملك علوة، فجعل منهم رقيقاً، وباع بعضهم للمماليك الذين لم يكونوا يشترون الرقيق إلا من علوة وذلك لاشتهار علوة بهذا النوع من التجارة لكون الرقيق سلعة رائجة تدر الربح الوفير.

- أحسنت يا سَمَرْقَنْدِي لكن ملك علوة بعمله هذا أغضب القبائل العربية من سكان (سُوبَا)، وجلب على نفسه وعلى (سُوبَا) السخط والمصائب، فالعرب القاطنون في (سُوبَا) لم يقبلوا أن يباع بعضهم رقيقاً بعد أن كانوا أحراراً. ثم إن ملكهم غدر بهم، وهذا من أخس أنواع الخيانة والنذالة. أخبرني «عامر» أنهم بعد أن دخلوا (سُوبَا) فدمروها انتقل العرب الذين كانوا فيها فالتحقوا بشياخة «جَمَّاعْ» وتصالحوا معه على دفع نصف ماشيتهم في البداية وتقديم جُعل سنوي من نصف الزيادة في ماشيتهم كل عام. بينما هاجر العَنَج جنوباً إلى حدود قوارة،

ولجأ آخرون منهم إلى فازوغلي عند جبل مويا وسُقدي، ونزح عدد كبير إلى جبال كردفان فأقاموا في سَلَّارَا والنِّتِلْ وبُوكْ وكادوقلي.

أمضيت مع «السَمَرْقَنْدِي» يوماً واحداً لكني تعلمت منه الكثير. هذا الرجل ممتلىء علماً وحكمة. وسوف أكثر من زيارته كلما وجدت لذلك سبيلاً.

***

الأرباب

مجالس السلاطين والملوك لها هيبة. لكنها لا تشبه هيبة الجلوس على الأرض في حضرة الشيخ الأرباب «إدريس ود محمد». سوف أحكي لكم أول لقاء لي معه. كنت قد سمعت عنه قبل أن أراه. الناس في سِنَّارْ يتحدثون عنه بإعجاب وإكبار، وصيته وصل إلى كل مكان.

رأيته جالساً في خلوته على حصير مفروش، ليس بينه وبين التراب شيء. كنت أظن أنني سأقابل شيخاً في الستين أو السبعين، قد أقعدته السنين والأيام وأحنى الركوع والسجود ظهره. لكني فوجئت به شاباً لم يتجاوز العشرين في تلك المرة، منذ سنوات. كان صحيح البدن، مستقيم الظهر، جميل المحيا. تتجلى في وجهه هيبة الملوك العظماء. كان هناك شلخ على هيئة سلم في كلا صفحتي وجهه. زاده وسامة وجمالاً. وفور أن رآني قام إلَّي هاشاً باشاً، وعانقني ثم صافحني، ومنعني من تقبيل يده، وناداني بيا أخي، ثم أمسك بيدي وأجلسني بالقرب منه. سحرتني بساطته وتواضعه، فلم أجد من الكلام ما يناسب المقام. فكرت في أن أقول أي شيء فعجز لساني. لكني عندما تكلمت أخيراً قلت له وأنا ذاهل عما حولي:

– حدثتني عنك «صُلَيْحَة» زوجتي!

– أعرف!!

دهشتُ لهذا. فمن أين له أن يعرف؟ لكنه قالها متبسماً، فأعجبني تبسمه هذا، وتلقيه كلامي بكل بساطة، وأستحييت أن أسأله كيف عرف أن «صُلَيْحَة» هي التي حدثتني عنه. ولما لاحظ حيرتي قال:

- عرفت «صُلَيْحَة» قبل أن أعرفك يا «عَبْد السَّمِيع». فهي صديقة خالتي، الشريفة «عائشة» زوجة الشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ». حدثتني عنها وعنك قبل أن أراك. وحكت لي قصة زواجكما المبارك.

- أين حفظت القرآن يا شيخ؟

- حين كنت صغيراً أخذني أبي من (حِلِيلَةْ شُوحَطَتْ) إلى الشيخ «البَنْدَارِي» الذي كان يقيم (بحَلْفَايَةِ المُلُوك).

- هو قاسمي إذن يا شيخ؟

- لا. لا. الشيخ «البَنْدَارِي» ليس قاسمياً، بل هو من قبيلة الهَوَّارَة الذين استوطنوا (حِلَّةَ الصَّبَابِي) في القديم. تتلمذنا عليه أنا والشيخ «هَجُو ود عَبْد الله». الشيخ «البَنْدَارِي» رجل صالح. لما رأى كثرة الظلم آلى ألا يسكن في بلدة المعاصي، فخرج من (الصَّبَابِي) إلى الخلاء، وأسس مسجداً لتعليم القرآن. قال لي بعد أن أكملت الحفظ:

- "يا ابوفركة يا ولدي مَاعُونَك أوسع من مَاعُوني. ما يملأه إلا الشيخ حَمَدْ وَدْ زَرُّوقْ رجل الصَّبَابِي".

ثم دعا لي بطول العمر، والبركة في الرزق، والصدق في القول والعمل.

كان رجلاً صادقاً مع الله، ولذا فأظنه مستجاب الدعوة. وبالفعل، بعدما سمعت هذا الكلام، طرت طيراناً إلى الشيخ «حَمَدْ وَدْ زَرُّوقْ»، فلزمته، وأخذت منه العلوم الفقهية واللسانية.

– قالوا إنه أعطاك علم الأولين والآخرين ياشيخ!

– لا تقل هذا الكلام! أستغفر الله يا «عَبْد السَّمِيع». علم الأولين والآخرين لا يعلمه إلا الله، ولا يكون إلا وحياً من الله لنبيه محمد.

– أستغفر الله إذن. تبتُ من مثل هذا الكلام. لكن أنت حجة في الفقه والعلوم يا شيخ حفظك الله.

قال لي:

– (وفوق كل ذي علم عليم)!

ثم سكت ولم يكمل. وقَدَّمَ لي تمرات أكلتهن، وأكل معي، ثم خرجنا نطوف على طلاب وخلاوي حفظ القرآن.

***

كان ذلك هو اللقاء الأول. لكني رأيته مرة أخرى، بعد مضي نحو سبع سنوات على ذلك اللقاء، يوم اجتمع عنده السُّلْطَان «عِمَارَة دونقس» والشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ». كان الشيخ «إِدْرِيسْ» يومها قد ناهز السابعة والعشرين. جئت حينذاك ضمن موكب السُّلْطَان «عِمَارَة»، فسبقت الموكب إلى بُتْرِي الشرقية لأقابل الشيخ وأسلم عليه قبل بقية الموكب.

وتساءلت لماذا لم يكن «إِدْرِيسْ» حاكماً أو ملكاً مثل هؤلاء، فهو يجمع علم الدنيا والآخرة. لكنني تذكرت كلام الوزير «عامر» فقد سمعته مرة يقول عنه:

- «إِدْرِيسْ» اختار الدعوة والدين ورفض الدولة ونظام الوراثة عن طريق الأم. ولَم يقَبل تفضيل زواج أبناء الخؤولة، وإلا لكان ملكاً، فهو أرباب، وهو ابن أخت الشريفة «عائشة بنت الشريف حمد أبودنانة» زوجة الشيخ «جَمَّاعْ» فأمه هي الشريفة «فاطمة بنت الشريف حمد» الملقبة «صُلَيْحَة».

- ولهذا يسمونه أرباب؟

- نعم، فالأرباب لقب وليس اسماً، فهو يطلق على أبناء ابنة السُّلْطَان أو الملك!

الشيخ «إِدْرِيسْ» هو الذي كان قد بدأ زيارة السُّلْطَان أول مرة في مدينة (أولو). والسُّلْطَان «عِمَارَة» علم بذكائه المعهود أن هذا العالم الشاب سيكون له شأن عظيم، وأنه لم يدعه إلى هذه البلدة إلا لأمر هام، فقبل الدعوة. ولما كان من عادته الطواف على المدن والقرى إضافة إلى كونه مبجلاً للعلماء والشيوخ، لم يتردد في المجيء، خاصة وأنه كان يعلم علاقة الشيخ «إِدْرِيسْ» بالشيخ «عَبْد الله جَمَّاعْ» بالمصاهرة.

وحرص الشيخ «إِدْرِيسْ» أن يجلس مع الشيخ «جَمَّاعْ» فيحدثه ويهيئه قبل حضور السُّلْطَان «عِمَارَة» فقال له:

- يا أبا عجيب أنت عندما تحالفت مع الملك «عِمَارَة» في القديم منذ ثلاثين أو أربعين عاماً ثم نقضت مُلْكَ عَلَوَة بعد ذلك نقلت القبائل

والمشايخ من كونهم دافعي ضرائب لملك نصراني، إلى حقيقة كونهم أتباع لسلطان مسلم. ولو اكتفيت بهذا وحده فهو صنيع يحمده لك الناس مدى الدهر، لكني أطمع في أن تصنع للناس شيئاً لم يسبقك إليه أحد في هذه البلاد.

- وما هو؟

- أنت قريبي ولذا فأنا أريد لك ولقومنا الخير، مثلما أريد الخير للسلطان، فأنتم الآن وكلاؤه وتبع لسلطانه بعد ذهاب سلطان عَلَوَة. وكل منكما يمتد ملكه إلى ما بحوزته من الأرض والبقاع والأتباع والقبائل. لكن أليس الأفضل أن تتوحد جميع القبائل معاً تحت سلطان واحد، فيكون لك مثل ما لـ«عِمَارَة» من المكانة؟ وأنت تستطيع أن تكون نائبه في جميع الأمور، بدلاً من كونك وكيله والمقاتل بالإنابة عنه، ومؤدي الضرائب التي تجمعها من القبائل العربية.

- هذا الكلام يقال للسلطان ولا يقال لي فهو الذي يقبل هذا أو يرده وليس أنا. ولو عرض عليَّ فحتماً لن أرده.

- أنا دعوته لأحدثه بمثل ما حدثتك الآن. ولا بد أن موكبه سيصل اليوم أو غداً، وسأنقل له هذا الأمر، وهو لا شك سوف يسر به ويقبله.

***

أذكر ذلك اللقاء جيداً وأذكر يوم التقى الملكان: السُّلْطَان «عِمَارَة» والشيخ «عَبْد الله» في حضرة الشيخ «إِدْرِيسْ» الذي لم يترك شاردة ولا واردة إلا وتكلم فيها. فقد تولى معظم الكلام حتى بيان التخوم والحدود بين الممالك والسلطنات والمشيخات، فقال لهما:

– حدود السلطنة معلومة من جَنْدَل تُنْبُس عند كَرْمَة في السافل إلى جبال فازوغلي في الصعيد ومن سواكن في الشرق إلى بحر أبيض في الغرب.

– صحيح!

– إذن يا أبا عجيب فلتكن أَرْبَجِي هي حدود مَشْيَخَة قَرِّي والحَلْفَايَة مع مملكة الفُونْج فمنها صعيداً يتبع لسلطان الفُونْج لا دخل لمشايخ قَرِّي فيه. ومنها للسافل إلى تُنْبُس المَحَس وكَرْمَة تديره مَشْيَخَة قَرِّي تحت حكمك ويخضع للملك «عِمَارَة» بواسطتك جميع مشيخات الشنابلة وممالك الجموعية والجعليين، والميرفاب والرباطاب، والشايقية والدُّفَار، والخندق والخناق وأرقو. لكن كل مَشْيَخَة لها سيادتها على قومها ولها إدارتها. ومن أربجي فصاعداً جنوباً تتبع كل البلاد للسلطان مباشرة لا دخل لَمَشْيَخَة القواسمة العَبْدلاب فيها. وبهذا يكون «عِمَارَة» سلطاناً عوضاً عن مَلِك عَلَوَة، وتكون يا عَبْد الله مَلِكَاً في مشيخات وممالك العرب ونائباً عن السُّلْطَان فيها.

أذعن الشيخ «جَمَّاعْ» على الفور فقد صادف هذا الأمر هوى في نفسه وهو الذي أراد هذا من قبل وسعى إليه بل وبذل عمره كله لجمع القبائل عرباً وعجماً تحت سلطان واحد ولهذا فقد حمل اللقب «جَمَّاعْ» وإلا فهو «عَبْد الله بن محمد الباقر». وها هي تسعى إليه منقادة ولهذا فلم يجادل قريبه فقد كان يعلم أن الشيخ «إِدْرِيسْ» رجل حكيم. ولابد أن ما ذكره هو في مصلحة القواسمة، مثلما هو في مصلحة السُّلْطَان. وكان يعلم قوة الفُونْج وسطوتهم، وكثرتهم بل وطمعهم في الاستحواذ على مَشْيَخَة القواسمة، وما يجاورها من ممالك ومشيخات، وذلك بعد أن ابتلع السُّلْطَان دولة علوة دون أن يتكلف حرباً أو قتالاً، بعد قيام الشيخ «جَمَّاعْ» بتدمير (سُوبَا) فكفاه مؤونة الحرب. ولهذا فالملكان وافقا على كلام الشيخ بلا زيادة أو نقصان! كان ذلك في أمسية عرفات ليلة عيد الأضحى. وكانت تلك هي الزيارة الوحيدة للسلطان «عِمَارَة» للمنطقة، وقد فهم من الشيخ «إِدْرِيسْ» أن هذا اللقاء هو أمر تقريري لما هو كائن أصلاً ولكن بطريقة رسمية ومعلومة من جميع الأطراف وأن إعلان توحد الممالك والمشيخات جميعها تحت السلطنة بمثابة رسالة قوية للأعداء والممالك المتربصة بهم فأعجبه ذلك وأقره لا سيما أن الشيخ «جَمَّاعْ» هو في مقام القائد العام للجيش والقائم على أمن السلطنة وجمع الأسلاب والضرائب من القبائل العربية التي تعتبر قوية الشكيمة سهلة التمرد على السُّلْطَان.

***

في اليوم التالي صلى الشيخ «إِدْرِيسْ» بالناس صلاة عيد الأضحى، ثم قام يكبر الله ويعلن قيام السلطنة، وذلك قبل انصراف الناس من صلاة العيد، فصار العيد عيدين. في ذلك اليوم أمر الشيخ «جَمَّاعْ» بنحر الأضاحي عن جميع أهل بُتْرِي الشرقية. وسرعان ما لبى جنوده النداء فملأوا الشوارع والطرقات بالذبائح. وما هي إلا ساعات وقد رصفت الموائد في الساحات. وأمر السُّلْطَان بنحاسه (الكِنْجِي) الذي يضرب في المناسبات، فأهداه للشيخ «إِدْرِيسْ». هذا النحاس كان يسبق موكب السُّلْطَان لكل مكان يحل فيه. وفور إعلان ميلاد السلطنة من مسيد الشيخ «إِدْرِيسْ» في ذلك الصباح أمر السُّلْطَان بضرب النحاس احتفالا ً طوال أيام عيد الأضحى، ثم بقي عنده رمزاً لعرفان سلطان الفُونْج لشيخ القواسمة العَبْدلاب، وعالمها «الشيخ إدريس بن محمد الأرباب». وكان منشد الفُونْج يصدح بالصوت العالي:

ضَرَبُوهُ وُصَـــاحَ الكِنْجِـــي لِمَلِـــك العَرَبِي وَالفُونْجِـــي
ونَامُوسَ الحَضْرَة السَّكَلَنْجِي أَبُّــو نَظَـرَاً يِمْحَـى العَوَلَنْجِـي

ومعناه أن إهداء النحاس وضربه احتفالاً هو تكريم للملك الحقيقي للعرب والفُونْج، السُّلْطَان «عِمَارَة»، بحكم ما جرى في ذلك الصباح. وهو في الوقت نفسه تكريم للشيخ «إِدْرِيسْ»، ناموس الحضرة، الذي له نظرة ثاقبة وبعيدة في هذا الأمر. والناس لم يسألوا المنشد تفسير كلامه

ذاك، مثلما لم يسألوه عن السَّكَلَنْج والعَوَلَنْج، فهي من شَطْحَات الفُونْج عندما يطربهم النحاس. فاكتفوا بالطرب عن فهم المعاني العميقة. ولماذا يسألون عن المعاني فالمهم هو ما حصل من توحيد الملوك، وقيام السلطنة. «إِدْرِيسْ» كان شيخاً زاهداً لكنه جمع الملوك فأعلنوا قيام السلطنة. وأقام السُّلْطَان «عِمَارَة» ببُتْرِي الشرقية عدة أيام وأخبر «إِدْرِيسْ» بأن بلدته هذه ستكون (عيلة فُونْج)، أي مقر الأسرة الحاكمة، فهي بلدة مباركة وبقي فيها ثلاثة أيام بلياليها يشهد الصلوات، ويحضر دروس الفقه المالكي. ثم رجع إلى مدينة (أولو). لكني تخلفت لأبقى مع «صُلَيْحَة» قليلاً في بيتنا الجديد الذي انتقلنا إليه هنا ببتري الشرقية (العيلَة فُونْج).

جَلَسَتْ «صُلَيْحَة»- كالعادة - تؤانسني وتحدثني بأحاديث النساء في هذه المنطقة. أخبرتني عن أمور كثيرة، وحدثتها عن لقائي بالشيخ «إِدْرِيسْ»، وأنه لفت نظري ذلك الشلخ الذي رأيته على صفيحة وجهه فابتسمت وقالت:

- أنا سبقتك بملاحظة هذا منذ زمان، فالأمر لا يختص به الرجال وحدهم في هذه البلاد بل هو عند النساء أكثر. وقد سألت «زَّهْرَاء» عنه في ذلك المجلس الذي حدثتك عنه من قبل فقلت لها:

- لماذا يقوم أهل هذه البلاد بعمل هذه الشلوخ التي تشوه الوجوه وتغير خلق الله يا «زَّهْرَاء»؟

فأخبرتني أنهم اعتادوا على ممارستها لكثرة القبائل، وانتشارها في هذه المناطق، واختلاط العربية منها بغير العربية، واختلاط المسلمة بالوثنية، وتفشي ورواج تجارة الرقيق، فهم يخافون أن يؤخذ أبناؤهم ونسلهم فيباعون في أسواق العبيد. ولذا فقد اتخذت كل قبيلة لأبنائها وشماً ووسماً يُعرفون به، ويتميزون عن غيرهم ، ومن هنا جاءت الشلوخ.

قالت لي «زَّهْرَاء» إن آباءها أخبروها أنه في بداية الأمر حظرت كل قبيلة على من ليس منها أن يتخذ وشمها، ومن وجدوه يفعل ذلك قتلوه. والعرب رأوا أهل هذه البلاد الأقدمين يفعلون هذا فقلدوهم ليتميزوا عنهم، بعدما وجدوا الشلوخ شائعة بين سكان هذه المنطقة.

قلت لها:

– يا «زَّهْرَاء» أنا لاحظت أثناء رحلتي من المغرب عندما دخلت من غربي هذه البلاد أنه حتى القبائل العربية التي تسكن هناك في كردفان وغيرها من قبائل الكبابيش والشُّكْرِيَّةِ والضَّبَايِنَة يفعلون هذا.

قالت:

– وكذا قبائل الشرق، من الحُمْرَان والبِجَةِ، والأُرْتِيقَة والكَمِيلاب، وبعض فروع قبائل الهَدَنْدَوة الشَّرْعَاب، والقَرَعِيبْ والبِشَارِيين، وبقية القبائل الأخرى، يصنعون الشلوخ، الطولي والعرضي منها التي تختلف من قبيلة لأخرى، فشلوخ الرجال مثل المُدْقَاق والسُّلَّم.

قلت لها:

– لاحظت أن هناك شلوخاً صغيرة يا «زَّهْرَاء» على الصدغ غير تلك التي على الخدود وصفحة الوجه.

قالت:

– هذه يسمونها الفُصُود. وهي للعلاج، وليست للتمييز. فنحن نفصد الأطفال حول السُّرَّة لعلاج آلام البطن وإخراج الدم الفاسد. ونفصد فصدتين عند الصدغ لعلاج الرَّمَد، ونفصد درب الطير أو النقرابى على الخدود.

قلت:

– رأيت مثل ذلك عند الشيخ «إِدْرِيسْ».

قالت:

– نعم هذه الفصدة اشتهر بها الشيخ، وتسمى سُلَّم الشيخ «إِدْرِيسْ»، وقد زادته جمالاً. وأنا التي صنعتها له في طفولته. فقد دعتني الشريفة «فاطمة المرضية» عندها يوماً، وأمرتني أن أفعل ذلك به، لتحصنه من العين، فقد كان فائق الجمال. لكنها زادته جمالاً ووسامة، وأصبح تلاميذه وحواريوه ومريدوه يقلدونه، فيصنعون تلك الفصدة أو الوسمة في أصداغهم أو خدودهم، رغم أنه لم يعلم بذلك إلا مؤخراً. وحين عرف نهاهم عنها، وكان يغضب إن علم أن أحدهم فعلها، وكان يقول لهم إن ذلك تغيير لخلق الله فهو حرام. لكن النساء هنا أصبحن يفعلن الشلوخ

للزينة. وليس كل قابلة تفعل ذلك، بل الشَّلَاخَةُ لها ناس معروفون، ويصنعونها بالثَّمَن.

قلت لها:

– وأنت يا «زَّهْرَاء» من الذي قام بتشليخك بالله عليك؟

قالت:

– ذهبتُ يوماً مع أمي لمناسبة، ولم تكن تنوي فعل ذلك بي. وفوجئت ببعض النساء ينوين تشليخ بناتهن، فوافقت على تشليخي معهن. لكنها خافت ولم تطاوعها يدها للإمساك بي، فقامت بعض النساء بذلك فأمسكنني، وقامت الشلاخة بتقطيع خدي بالموس. فصنعت ثلاثة خطوط وعَارِضاً، وقالت هذه شلوخ القواسمة، بينما وضعت إحداهن يدها على فمي، لتمنعني من الصراخ. كنت أركل بقدمي، لكن ذلك لم يمنعهن ولم يتوقفن. ثم قامت المرأة الشَّلَّاخَة بحشو الجروح بالقَرَظِ المسحون والقَطِرَان، ليتوقف نزيف الدم. لكن وجهي تورم وأصبح مثل البطيخة. ولم أقدر على الأكل ولا الشرب أياماً عديدة، فكانوا يسقونني الحليب يَصُبُّونَهُ في فمي صباً. لكن أقوى ألم شهدته في حياتي كان هو الألم اليومي عند تنظيف الجروح بالمَحْلَبِيَّةِ، ومن ثم إعادة حشوها ثانية بمسحوق القَرَظِ. كان النَّزْفُ يتجدد كل يوم عند تنظيف ذلك الجرح. ولأول مرة أغضب من أمي، فعندما ختنوني كنت صغيرة، لكني كنت واعية عندما شلخوني.

– ما هذا الصنيع الشنيع يا«زَّهْرَاء»؟ أنا أعلم أن الشلخ والوسم والفصد هو للبهائم، فالقبائل تسم الإبل والغنم بوسم القبيلة، حتى تميزها عن سوائم القبائل الأخرى، في حال اختلطت ببعضها أو سطت عليها القبائل الأخرى. لكنهم هنا يَسِمُون البشر بوسم البهائم!

كانت الحاجة «زَّهْرَاء» تضحك حتى تسيل دموعها وهي تحكي:

– ياشيخة ليتهم يكتفون بالختان والشلوخ للبنات.

– وماذا أيضاً يا «زَّهْرَاء» من الشناعات؟

– دَقُّ الشَفَايِفْ! هذا إحدى الطامات. يزعمون أنه يصنع اللَّمَى.

– ياويلي. ولماذا يفعلونه؟

– يزعمون أنه لجمال الشّفَتين وزينتِهما. وذلك أن الشفاه تصبح خضراء اللون بعدما يدقونها! لكنهم يصنعون ذلك بطريقة بشعة. أذكر ذلك اليوم جيداً حين جئن إلى بيتنا وكنت غافلة عما يردن فعله بي، فلم يخبرنني. وقد اعتدن أن يفعلن ذلك عن طريق الخداع.

لمحتُ أمي تغمز لإحداهن، فجاءت وأمسكت بي من الخلف. وظننت أنها تريدها أن تمشط شعر رأسي، فاستسلمتُ لها لأنني كنت قد نسيت ألم الشلوخ، فقد مضت سنوات منذ أن شلخوني. لكن امرأة أخرى لا أعرفها، جاءت فأمسكت برأسي، وجلست أخرى فوقي، وأمسكت يديَّ، وأخرى أمسكت شفتي السفلى، وبدأت تطعنها وتخزها

بحزمة من الإبر مربوطة جميعها معاً. كانت تطعنني بها سريعاً ولمرات متعددة. وتكرر ذلك حتى غطت شفتي كلها بالثقوب. كدت أموت من الألم عندما كانت تطعنني. كنت أحس بالألم في راحة قدمي، وفي أعلى رأسي في الوقت نفسه. وبعد أن أحدثت تلك الثقوب قامت بحشوها بالكحل ليتغير لونها للأخضر. بقيت شفتي متدلية للأسفل هكذا، مثل لسان الكلب، لمدة ثلاثة أيام ولعابي يسيل مثل البلهاء، ولا أستطيع إيقافه. قالوا لي بعد ذلك إن شفتي أصبحت جميلة، وأنهن صنعن اللَّمَى. وقلن لي إن هذا اسمه (دَقّْ الفُونْج) أخذه العرب من الهَمَج! حين نظرت للمرآة بعد ذلك بكيت يوماً كاملاً. لكني رضيت عندما جعلنني أشرب القهوة مع النساء. فكنت أشربها ساخنة، وعندما أضع الفنجال على تلك الشفة لا أحس بالحرارة، بل لا أحس بأي شيء أبداً.

ضحكت «زَّهْرَاء» على نفسها كثيراً. ثم قالت:

– كل هذا الذي حدث معي جعلني أتعلم الطِّبَابَة والقِبَالة، فاكتسبتُ المهارة والدُّرْبَةَ فيها، لدرجة أني أصبحت أُخِيطُ الجروح بِسَبِيبِ الخيل. وفي مرة جاءوا لي برجل قد بُقِرَتْ بطنه، جاءوا به يحملون أمعاءه حارة في أيديهم، فأرجعتها إلى بطنه، وغطيت الجرح بالقَرْع المنزوعة قشرته، ليلتئم دون التهاب أو تَقَيُّح، بعد أن خِطْتُ الجُرحَ بِسَبِيبِ الخيل.

– يقولون إنك نِطَاسِيَّةٌ ماهرة وصانعة دواء، فمن أين تعلمت هذا؟ هل كانت أمك تعرف كل هذا؟

– لا لا. أمي لم تكن تعرف صناعة الدواء مثلي. فقد تعلمتُها على يَدَيْ رجلٍ غريب. كان هناك حكيم من نصارى الكفار، الذين جاءوا بهذه البلادِ عابرين. لكن هذا (الخَوَّاجَة) لما مرَّ بنا أعجبه المكان وطاب له المقام، فمكث عندنا سنة كاملة. تعلمت منه فيها صناعة الدواء، وأنواع المُنَوِّمَات، والمُسَهِّلات والمُجْهِضَات، والمَرَاهِم واللَّبْخَات، والغَرْغَرَات وقَطْرَة العَيْن والأُذُن، وأنواع الأَمْزِجَة. وكان حكيماً عطاراً يحسن صناعة الدواء، فاستفدت منه أيما فائدة. علمني ذلك النصراني الكثير أيام كان يرافق أبي ليتعلم منه. كذلك فقد كان أبي يحسن تحضير الدواء من الأعشاب، ويعرف الكي بالنار وجبر الكسور، وكان يختن الصبيان.

– أنا أتعجب يا «زَّهْرَاء»! لماذا بقيت تمارسين هذه الأعمال ولم تمتنعي عن تشليخ البنات ودق الشفايف بعدما كبرت، وبعد أن صنعوا ذلك بك وأنت صغيرة؟

ضحكت «الزَّهْرَاء» وقالت لي:

– أنتقم من بناتهن جميعاً بنات الـ.! تريدين أن أكون أنا الوحيدة بين البنات التي يُعْمَل لها هذا؟

وعلمت أنها تمزح. فالأمر منتشر بين جميع القبائل، وليست «الزَّهْرَاء» وحدها هي من يصنع هذا.

***

أحاديث صُلَيْحَة وحكايات «الزَّهْرَاء» نبهتني إلى أشياء شاهدتها هنا، فقد كانت بعض قوافل السُّلْطَان التي تأتي من الخارج تحمل معها في بعض الأحيان وباء الطاعون، وهو داء ليس له دواء. لكن السُّلْطَان أنشأ مفتشين يفحصون القوافل حين عودتها. وإذا وجد فيها مصاب بذلك الوباء يحجر على كل القافلة وسكان محطة الدخول لمدة سنة ويوم، ريثما ينجلي الوباء بينهم. لكن بعض الوباء قد يتسرب أحياناً إلى داخل البلاد.

وبالممارسة فَهِمَ سكان (سِنَّارْ) أن الجُدَرِيَّ هو بضاعة يحملها الأجانب. فكان رد فعلهم هو أن يشتروه مثله مثل أي بضاعة ليحصنوا أطفالهم من آثاره! والنساء هن من يقمن بمثل هذا العمل، فما أن يبلغهن ظهور الجدري في مكان، حتى يذهبن إلى المكان الموبوء، فتلف الواحدة منهن خرقة من القماش القطني حول يد المصاب، ثم تتركها في يده إلى أن تتم المفاصلة مع أمه على الثمن الذي يدفعنه لها مقابل استعادة تلك الخرق التي يضعنها على القرح، فهي ترياق يشترى بالثمن. وعندما يشترين تلك الخرق يعدن إلى قراهن فيربطن تلك الخِرَق على أيدي أطفالهن. النساء اكتسبن هذا التدبير من طول التجربة فالطفل الذي يصاب بالعدوى سيكون بخير ولن يصاب بالقروح أكثر. فَيُحَصِّنَّ أَطْفَالَهَن ضد هذا الوباء بتلك الخرق.

حين كنت طفلا في المغرب لم يكن أحد من الناس يعرف مثل هذه التدابير فمات كثيرون. ما زلت أذكر مناظر الأطفال الموتى في الطرقات والكلاب الجائعة تأكل أطرافهم. بل ما زلت أذكر أمي وأبي! اللذين ماتا ضحية ذلك الوباء الفتاك الذي لم يعرفوا له دواء ولا ترياقاً.

السواكرة

أيقظ حديث «السَمَرْقَنْدِي» عن الشيخ «إِدْرِيسْ» في نفسي بعض ذكريات، فزرته مرة أخرى. وكالعادة استقبلني بتواضع وأجلسني بجواره، وذلك قبل أن تدخل عليه تلك المرأة التي جاءت هاربة تطلب الأمان عنده. دخلتْ سراً وكانت ملثمة. الشيخ «إِدْرِيسْ» كان ذكياً لَمَّاحَاً فَعرَفَ على الفور من هيئتها أنها من بنات الملوك أو الشيوخ. لكنها بعدما كشفت اللثام فوجيء بأنها الأميرة «بياكي» الفُونْجية، زوجة السُّلْطَان «عِمَارَة» نفسه. هذا الأمر أزعج الشيخ كثيراً، فكان يخرج من مسيده ويدخل. ثم صرف الحاضرين كلهم، وطلب مني البقاء برفقته. فلا بد أن أمراً هاماً قد أجبر هذه المرأة على السفر بمفردها، فهي لم تصحب معها أحداً في الطريق. لكنه لم يسألها فلم يكن من عادته أن يسأل من يأتيه حتى يبادر القادم بالكلام، ويبين غرضه من الزيارة.

لم تنتظر «بياكي» صامتة فانطلقت تحدث الشيخ في حرقة، أنها بعدما أنجبت للسلطان ولداً ذكراً أخرجوها من القصر ليمنعوها من معاشرة زوجها السُّلْطَان، بعدما أخذوا منها ولدها لتتم تنشئته في (قصر السواكرة)، فربما يصبح هو السُّلْطَان من بعد ذلك. ولم يتركوها مع ولدها ولم يسمح لها برؤيته، بل أخرجوها إلى أطراف المدينة ومنحوها

أطياناً وفَعَلَةً يفلحون لها الأطيان. والسُّلْطَان لم يتنازل عنها لأي رجل آخر من أعوانه، وذلك لكونه قد أنجب منها. لكن فؤادها انفطر على ولدها، وغلب عليها الشوق والحنين، بعدما حرمت منه طوال هذه السنين، فكانت تبكي ليلاً ونهاراً. وسمعتْ بأن الشيخ «إِدْرِيسْ» له كلمة ومكانة عند السُّلْطَان، فجاءت متخفية ليشفع لها عنده حتى ترى ولدها. الشيخ «إِدْرِيسْ» كان يعلم أعراف الفُونْج وتقاليدهم في مثل هذه الأمور. قال لها:

– أنت تعلمين أن قومكم الفُونْج اعتادوا عندما يولد للسلطان ولد أن يفصلوه عن أمه لينشأ في (قصر السواكرة)، فيقفلون عليه ويمنعون أمه من رؤيته، ومن الاقتراب من القصر، مثلما صنعوا بك وبولدك. وتعلمين كذلك أن (مقدم السَّوَاكْرَة)، القائم على هذا الأمر، والموكل بتربية القواويد أبناء السُّلْطَان، وأبناء الحكام والنبلاء، لا يسمح لأحد بالاقتراب منهم ففي ذلك قطع الرقاب.

– أرجوك اشفع لولدي عند السُّلْطَان!

– السُّلْطَان لا يملك أن يعيد ولدك إليك، ولا يمكنه التدخل في شئون (مقدم السَّوَاكْرَة) الذي هو صاحب سلطة مطلقة في التصرف في أبناء السُّلْطَان وأبناء الحكام كذلك. تلك عادات الفُونْج وأنت تعلمينها جيداً. وهي التي حفظت للفُونْج هيبتهم وسلطانهم فأهلك الفُونْج اعتادوا عند وفاة السُّلْطَان أن واحداً فقط من أبنائه يتم اختياره خلفاً

له ثم يقومون بقتل الأبناء الآخرين كلهم حتى لا يظهر منافس للملك وسط العدد الكبير من الأمراء.

تدخلت أنا مقاطعاً:

- كم عدد الأبناء الذين مثله يا شيخ؟

- كثيرون يا «عَبْد السَّمِيع». لكن المشهورين منهم هم «عَبْد القادر» وزير السُّلْطَان، والمقدوم «نايل». هم الذين يسمح لهم بالجلوس في مجلس السُّلْطَان. لكن المؤكد أن له أولاداً كثيرين من الذكور مثل ابن هذه الأميرة. أنا رأيت «عَبْد القادر» في مجلس السُّلْطَان وأظنه في مثل سني تقريباً!

- وما الذي يحدث عند موت السُّلْطَان؟ وهل مصير الآخرين الذين لا يتم اختيارهم سلاطين هو الموت حقاً؟

- نعم يقتلونهم حتى لا ينافسوا أخاهم في الملك. ولذلك يمنعون الأمهات من تنشئة أبنائهن، حتى لا ترق قلوبهن لهم فتنفطر عندما يتم قتلهم. وقد يقوم السُّلْطَان الجديد نفسه بقتل إخوانه الآخرين الذين غالباً ما يكونون إخوة غير أشقاء فأمهاتهم شتى.

قالت المرأة مشفقة بعدما سمعت هذا الكلام:

- وحين يأخذونه فيقتلونه بعيداً عني، أتظن أن قلبي لا ينفطر؟ أنا أم يا شيخ، والأم مستعدة أن تموت بدلاً عن ابنها ألف مرة .

صمت الشيخ موافقاً على كلامها لكنها سرعان ما أخرجته من صمته ذاك بقولها:

– ألا يوجد أي مخرج لابني يا شيخ؟

قال لها:

– إن بعض الأمراء يُهَرَّبُون بترتيبات سرية من العاملين في بلاط السُّلْطَان وأمهات هؤلاء الأمراء، وأن عليك بدلاً من القلق على ابنك أن ترتبي لتهريبه سراً من القصر بالاتفاق مع بعض رجال البلاط.

– لكن يا شيخ لن ينجو ابني في كل الأحوال، لأن السُّلْطَان الجديد تكون من أوجب مهامه مطاردة إخوانه الفارين. يطاردهم بنفسه ويقتلهم. مثلما تقول.

– لن يحدث هذا إن وجد ابنك ملجأ خارج قبضة السُّلْطَان الجديد، كأن يهرب إلى دار الفور غرباً ، أو جبال أكسوم شرقاً!

– أو يأتي فيختبيء عندك.

سكت ولم يوافقها على ذلك. وفهمت أنه لا يريد أن يتدخل في شئون السُّلْطَان القادم. فهو ما زال حديث عهد بتوحيد الممالك تحت سلطنة واحدة. قالت الأميرة إنها لا تعرف أحداً يعينها على تهريب ابنها. وبدأت تبكي من القهر. أخبرها الشيخ «إِدْرِيسْ» بأنه يمكنها البقاء عنده ريثما تتدبر أمر ولدها فشكرته وخرجت لتبقى مع النساء!

أخذني الشيخ إلى مسيده الذي يدرس فيه القرآن. لاحظت أنه كان مهتماً وحزيناً بعد ذلك الحوار. ورغم أنه حاول إخفاء ذلك عني إلا أنني قرأت الحزن في وجهه. ثم تحدث فقال لي:

– أنا حزين لما وصل إليه حال هؤلاء المساكين. فمعظمهم ضحايا لأعراف وثنية مفروضة عليهم. ولم يحدث أن جاءني قبل هذا من يطلب مثل طلب هذه الأميرة. ولكني اعتدت أن كثيرين ممن يأتون إنما يطلبون المساعدة أو الشفاعة لكونهم من المزارعين ضحايا الربا أو الضرائب ممن ضاقت بهم السبل.

– وكيف ذلك يا شيخ:

– المزارعون في هذه البلاد يدفعون الكثير من الضرائب. والحكام وجدوا عادات التكافل والمشاركة بين الناس فوظفوها ضرائب. أستطيع أن أعد لك عشرات الأنواع من الضرائب.

– عشرات؟

– نعم فالمزارعون يدفعون الضرائب الشرعية زكاة المال عند الحصاد، وزكاة الفطر في رمضان. وفوق ذلك يدفعون العشور والضرائب العرفية. يدفعون (ضريبة الدم) ذبائح يذبحها مالك الأرض للحاكم وأعوانه يوم يأتونه لجمع الضرائب، وضريبة (الكُلِّيقَة) طعاماً لدواب الحاكم وأعوانه، وضريبة (القُلَّة) عيشاً يؤخذ بالبرمة، وضريبة (العادة)

إعانة مالية يقدمونها للحاكم في المناسبات السعيدة المعتادة كالختان والأفراح، وضريبة (النزول) نفقة على الحاكم وأعوانه ما داموا نازلين عند صاحب الأرض.

قلت له محتجاً:

– هذا كثير يا شيخ!

لكنه استمر في ذكر الكثير والكثير من أنواع الضرائب ولم يعبأ بكلامي ففهمت أنه غاضب جداً من كثرة الضرائب. قال مواصلاً حديثه:

– وضريبة (العانة) إعانة ومساعدة للحاكم ومعاونيه في الأعمال، وضريبة (السَّنْسَنَة) حَرْفاً من الكِسْرَة والطعام للحاكم وأعوانه، وضريبة (المخلاة) طعام يزودون به الحاكم وأعوانه لسفرهم زاداً في الطريق. هذا غير جباية العوائد التي تدفع عن الأطيان.

– ياللهول!

– وليت الأمر يقف عند الحاكم وأعوانه فالمزارعون يدفعون ضريبة (تورات) للجنود الذين يحلون في ديارهم وجبات طعام تعيينات قبل أن يرحلوا عنهم! وضريبة (سَبَلَة) و(عَلُوق) لدواب الحاكم وأعوانه. وغير ذلك كثير. وبالطبع لم أعد لك أنواع (الحِسَب) التي يؤدونها ديات أو غرامات وتأديب. حتى أصبح (الجرَّاي) عامل الخراج الذي يجمع هذه الضرائب والإتاوات هو رمز تخويف وتشريد للجميع من ديارهم.

– وكيف يطيق المزارعون كل هذه الضرائب؟

– بالطبع لا يطيقونها، فيضطرون للاقتراض أو (الشَيْل) وكما تعلم هو الربا العيني نفسه. والربا أمر مدمر للمزارعين. فالتجار يستغلون أيام ندرة النقد والمحاصيل الزراعية، ويعرفون متى يواجه المزارع نقصاً في موارد الغذاء خلال فترة ما قبل موسم الحصاد، فيضطرونه أن (يشيل) منهم كميات من الحبوب لطعامه، ريثما يتمكن من الحصاد وبيع المحصول. لكن أسعار الحبوب في موسم الحصاد تتدهور في الأسواق لكثرة المعروض وندرة المشترين، ولذلك يضطر المزارع لتسليم التاجر كميات أكثر من تلك التي اقترضها منه، وذلك حتى يتمكن من الوفاء بدينه والتزاماته. وإذا فشل في ذلك فعليه أن يتحمل العقوبة الرادعة من المحاكم المحلية. فالقضاة يتمتعون بعلاقات طيبة مع التجار، ويخضعون لسيطرتهم ونفوذهم. وبعض القضاة يعمل في النشاط التجاري، فيكون هو نفسه من يمارس (الشيل) مع المزارعين. ومن يفشل من المزارعين في سداد دينه يبيعونه رقيقاً، وربما تباع زوجته وأطفاله معه.

– ولهذا يهربون من قراهم خوفاً من عاقبة الأمر.

– نعم والعجيب أن معظم الرجال الذين تراهم هنا في مسيدي هذا هم من المزارعين ضحايا (الشيل) والضرائب، والهاربين من التجار، حتى لا يتم استرقاقهم وبيعهم عبيداً. أستطيع أن أعد لك منهم كثيرين.

ذاك الطويل النحيف (مُسْمَار)، وهذا الذي يصلي هو (الإسيد). هؤلاء من المزارعين ضحايا الربا. وهناك (زُقْبِير) و(الشُّوشْ) و(دِقِيسْ) و(مَكَّاوِي) كلهم من الهاربين من التجار حتى لا يتم استرقاقهم هم ونساؤهم (أم دورين) و(سِتْ النَّفَرْ) و(عَشْمَانَة) و(شَغْبَة)، وكثيرات غيرهن في مأوى النساء لو رأيته. وربما يغضب هذا الأمر السُّلْطَان لو عرف أنني أقبل الهاربين عندي.

- مؤكد أنه سيظن أنك تتعمد مخالفته.

- لن أكتمك أنني فكرت في بناء ملجأ للهاربين والمرقوبين، وربما أطلب من السُّلْطَان أن يعطيني الحجز في المنازعات بين المتخاصمين، فهناك ظلم كبير يقع على المساكين. وأما القضاة فهم أعوان التجار مما يزيد في الظلم الواقع على المزارعين.

***

سناريات

بعد إعلان السلطنة انتقل «عِمَارَة» من أولو إلى سِنَّارْ لتكون عاصمة ملكه. كان قصره قد شارف على الانتهاء في المدينة الجديدة، وقد شيدوه من الحجارة في معظمه. الذين عملوا في بناء القصر يقولون إن المعماري الذي أشرف على بنائه تتلمذ على المعماري «سنَانْ بن عَبْد المَنَّان»، فقد عمل معه في توسعة المسجد الحرام. قصر السُّلْطَان آية من آيات الجمال. وله سور وأبواب ومداخل كثيرة. من لا يعرفه يقول هو من بناء الكفار. اشترى السُّلْطَان كل حجر فيه من تجار الفُونْج، ودفع ثمنه عملات ذهبية بالدينار الأشرفي، الذي هو من أجود أنواع الذهب، فهو دينار ملوكي يزن كل دينار درهماً وثُمن درهم. واستحق تجار الفُونْج ذلك الثمن، فقد كانوا يجلبون تلك الحجارة من مسافات بعيدة جداً. جلبوها من حطام آثار وبقايا الممالك العظيمة في الشمال.

التجار الذين بنوا ذلك القصر جلبوا المعماريين من مصر والشام. لاحظت هنا أن الناس يطلقون على هؤلاء التجار لقب (خَوَّاجَات)، وذلك لكون معظمهم من الأجانب، ويكونون تحت رعاية كبار رجال البلاط. ولذا فقد اكتسبوا مكانة عظيمة في مجتمع سِنَّارْ فلهم الأفضلية في كل شيء. لدرجة أن عقوبة الاعتداء على الخوّاجة تعادل أربعة أمثال العقوبة على الرعايا .

عندما كانت سفن التجار تتجه شمالاً لجلب الحجارة وتتوقف عند (العيلة الفُونْج) للاستراحة، كان الشيخ «إِدْرِيسْ» ينصحهم أن يجتنبوا الطَّرَابِيلَ التي بالبجراوية ومروي، فهي تضم رفات وأجداث الموتى الأقدمين. ونصحهم ألا يجلبوا حجارة التماثيل، فهي أصنام ملعونة لا تصلح لبناء بيوت المسلمين. التجار نقلوا تلك الحجارة من أماكنها إلى القوارب على النيل. وكان الإبحار بها عكس التيار يتطلب عنتاً كبيراً ورحلات شاقة. استغرق التجار أكثر من سنتين لجلب تلك الحجارة، واستعملوا مئات العبيد لقطعها ونقلها. كانت حجارة عظيمة فأقوى عشرة رجال لا يستطيعون حمل الحجر الواحد ورفعه إلى الطوابق العليا. قصر السُّلْطَان مكون من عدة طوابق، وقد قلده كبار التجار فبنوا بيوتهم من تلك الحجارة كذلك، لكنها كانت أقل ارتفاعاً، فلا أحد يجرؤ أن يتجاوز قصر السُّلْطَان في العلو، مع أن كثيراً من التجار كان معهم من المال ما يكفي لبناء مثل ذلك القصر. إلا أن السُّلْطَان هو أغنى الأغنياء في المملكة، فهو يملك جميع الأراضي التي تقع على ضفتي بحر العاديك ، التي استولى عليها بعد سقوط عَلَوَة. لكنه لم يبقها في حوزته كلها، فقد أقطعها للأشراف وللزعامات القبلية والدينية والعسكرية بحُجَج سلطانية مختومة، وبشرط أداء جزء من ريعها للسلطان، بينما احتفظ لنفسه بأكثرها خصوبة وأجودها تربة. الفُونْج والقواسمة العَبْدلاب معاً استولوا على أطيان النوبة الخصبة، لكن السُّلْطَان ناله النصيب الأعظم

منها. وحتى تلك التي يملكها العَبْدلاب بقوا يؤدون جزءا من ريعها وخراجها للسلطان.

بعد انتقال السُّلْطَان إلى قصره الجديد سرعان ما هاجرت كثير من القبائل والأجناس إلى سِنَّارْ، وكثر (الجلابة) وهم صغار التجار، وقد كانوا في بداية تكون المدينة تجاراً متجولين ذوي إمكانات محدودة، ورؤوس أموال صغيرة. لكن بعضهم سرعان ما استقر في أسواق المدينة وأنشأوا الصناعات الحرفية، فظهر نسيج الدمور والقطن والمصنوعات الجلدية، وصناعة الأحذية الصَّرْمُوجَة والفُونْجاوي، وأباريق الجلود (الرِّكْوَة) والخُرْج وسوط العَنَج، والرَّحْط والحِزام والشِّكَال، والمِخْلاة والدَّرَق (من جلود فرس النهر أو الخرتيت) وأغماد السيوف والخناجر!

جاء الصاغة من مصر وبلاد المغرب، وانتشرت صياغة حُلي الشَّقَش، الذي بدأت صناعته في مصر وأطلقوا عليه اسم الشَّقَش السِّنَّاري. لكن التجار سرعان ما نقلوه ليصاغ في سِنَّارْ نفسها. كما انتشرت صناعة المراكب والسَّواقي التي تدار بالثيران والحمير والجمال لرفع الماء من النهر إلى المزارع، وانتشرت أدوات الانتاج الزراعي، من مِنْجَل ونَجَّامَة وسَلُّوكَة وَوَاسُوقْ، وازدهرت النجارة لصناعة الأبواب والشبابيك بينما بدأ التجار يجلبون صناعات الفخار من أزيار وقُلَلْ وأباريق وقَوَاديس من منطقة أم قحف جنوب بُتْري الشرقية شمال ساقية الشيطان عند منحنى (بحر سُوبَا)، وهي من بقايا صناعات الخزف التابع لدولة علوة المنقرضة.

رغم أن الناس هنا يبيعون ويشترون بالبدل والمقايضة، في كثير من معاملاتهم وبيوعهم، إلا أن السُّلْطَان أمر بإنشاء صناعة سك النقود من الذهب والفضة. التجار يبيعون ويشترون بأوقية الذهب التي يحدد السُّلْطَان قيمتها ويحتفظ بالذهب في خزينته، لكن الناس يشترون بمُحَلَّقَات الفِضَّة ويبيعون بالريال وحدائد العملة الرخيصة بينما يشتري السُّلْطَان السلع بدينار الذهب الأشرفي الملوكي. فهو يملك مناجم الذهب في ساسو ووادي تومات وهو الذي أمر أعوانه باستخراج الذهب والفضة والحديد والنحاس كما أمر بصناعة الأسلحة من سيوف وحراب وَدَرَق.

***

طفت في أرجاء سِنَّارْ فرأيت الزندقة متفشية حيث لا توجد مدرسة علم ولا قرآن، إلا من بعض خلاوي الزهاد وشيوخ الطرق والقليل من التلاميذ يتعلمون اللغة العربية وبعض القرآن في تلك الخلاوي والبلاد ليس بها إلا أقل من القليل من العلماء ومعرفة الناس بالدين ليست كبيرة فالرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها من غير عدة حتى ولو كانت حبلى من غيره. وجاء رجل من مصر اسمه محمود العركي، فبدأ يرشد الناس ويعلمهم العِدَّة وفقه الزواج والطلاق وتمليك الأطيان ونظام الوراثة وفقاً للشريعة الإسلامية والأعراف المحلية، وكان يتبع المذهب المالكي. لكنه سرعان ما لبث أن اغتنى وجمع المال وسكن بحر

أبيض وأصبح واسع الثراء فجأة، فبنى قصراً منيفاً يشبه قصر السُّلْطَان في سِنَّارْ، بناه من الحجارة وجعله من طوابق شتى.

كثير من الناس هنا من الناطقين بغير العربية بدأوا يتعلمون العربية، فيتحدثونها جنباً إلى جنب مع النوبية والبجاوية ولغة البَرْتَا واللهجات الأخرى. لكن بقيت معرفتهم بالدين شحيحة، ولاحظت أن كثيراً من السكان لا يؤدون الصلوات المفروضة، ولا يصومون رمضان، لكن الجميع يقدم القرابين في عيد الأضحى ويخرجون زكاة الفطر في عيد رمضان!

بعد سنة واحدة من القدوم إلى سِنَّارْ كثرت الأموال في أيدي التجار وانتشر الدخان والتُنْبَاك في البلد، وتفشت ظاهرة شرب البُن والقهوة. أدخلها التجار فأدمنها أصحاب الأموال. وبدأ كثير من التجار أنفسهم يشربون البُن ويتعاطون الدُّخَان والتُنْبَاك، وأصبح ذلك عرفاً عند الموسرين وحتى الشيوخ من ملاك المزارع بدأوا يتعاطونه كذلك. فالأموال تجري في أيديهم من ريع المزارع. والناس هنا لا يسألون عن الحلال والحرام فكل شيء عندهم مباح إلى أن يفتي أحدهم بحرمة هذا الشيء أو ذاك. ولا توجد مراجع في الدين إلا مخطوطات الفقه المالكي التي يأتي بها المغاربة وأصحاب الطريقة القادرية والطريقة الشاذلية. وهم يحفظونها عندهم كأغلى شيء ولا يفرطون فيها.

وعلى ذكر المخطوطات هل أخبرتكم أني فشلت فشلاً ذريعاً في إنشاء مكتبة للسلطان؟ رسالة «صُلَيْحَة» وحكاية جدها عن مكتبات الأندلس جعلتني أحلم بأنني سوف أنشئ مكتبة عظيمة للسلطان، لكني سرعان ما اكتشفت أن الناس هنا شحيحون بالكتب والمخطوطات، فهم أحد نوعين: رجال علم وفقه، وهؤلاء لا يفرطون في مخطوطاتهم بالبيع ولا غيره، ورجال تجارة وزراعة ورعي وحرب وغير ذلك، وهؤلاء جميعهم لا يحفلون بالمخطوطات ولا المؤلفات. وكثير منهم لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولم ير مخطوطة في حياته.

وأما (الفقرا) فكثير منهم دجالون، يشتغلون بالسحر والشعبذة والخدع والحيل، وهم يحرصون على اقتناء كتب السحر أكثر من حرصهم على المؤلفات في الفقه والعلوم الشرعية. ولذا فلم أعثر إلا على أقل القليل من الكتب والرسائل والمخطوطات، مثل رسالة أبي زيد القيرواني، ومختصر خليل بن اسحاق في الفقه المالكي. وبعد جهد عثرت على مدونة أسد بن الفرات، وسحنون وشرحها لأبي عمران، وفتح الجليل على مختصر الخليل، وشرح عَبْد الباقي الزرقاني على مختصر الخليل، وحاشية على شرح الثنائي في الرسالة للشيخ علي الأجهوري، ومختصر الأخضر في العبادات، وبعض مخطوطات قليلة. لكني دهشت عندما رأيت مخطوطة منهاج الطالبين لمحي الدين النووي عند أحد طلبة العلم، فتذكرت حكاية «صُلَيْحَة» عما حدث لجدها عندما كان في الأندلس وأراد شراء تلك المخطوطة، فعزمت

على استنساخها وإرسالها إليه هدية على سبيل المفاجأة. كما وجدت متن السنوسية في علم العقائد، وهي مقدمة في التوحيد، وجدتها لدى الشيخ الأرباب «إدريس بن محمد» عندما كنت عنده.

حدثني «السَمَرْقَنْدِي» أن أهل سِنَّارْ - رغم زندقة البعض منهم – هم أكثر من غيرهم حرصاً على الدين، وذلك لاختلاطهم بالأشراف والعلماء الذين يأتون لزيارة السُّلْطَان. ورغم ما ذكره عنهم إلا أنهم يصفون رعايا جنوب سِنَّارْ بأنهم (زنوج كفار)! لكن السُّلْطَان لا يبالي ما داموا تحت سلطانه وطوع أمره. وكان يقول عندما يشتكي أهل سِنَّارْ من رعايا الجنوب:

– يا ناس اصبروا عليهم. فبعد قليل يحسن إسلامهم.

وبالفعل، فبعد مدة قصيرة رأيت بعضهم يختن أبناءه، ويتنافسون في إقامة احتفالات الختان الجَمَّاعية، فعلمت اقترابهم من الإسلام، وإن لم يختتنوا هم أنفسهم. وقد أسلم كثير منهم لأنهم وجدوا السُّلْطَان مسلماً، وحريصاً على إسلامهم، فأصبحوا على دين السُّلْطَان، وبدأوا يقدسونه أكثر مما يقدسه رعايا سِنَّارْ نفسها.

أخبرني «السَمَرْقَنْدِي» أن السحر منتشر هنا بكثرة بين القبائل، وأن كثيرين يخيفون أعداءهم عن طريق الوهم، والناس يصدقونهم ويعتقدون فيهم، فيشيعون عن رجال بعض القبائل أنهم يَنْسَلُّونَ من أجسادهم البشرية ليلاً فيتحولون إلى ضباع، وأشهر السحرة يطلق عليه

(المَصَّاص)، ويعني الرجل الضبع، الذي يمتص دماء ضحاياه. ويوقع الأذى عليهم بتوجيه قوى السحر الكامنة فيه فيصبحون رهن إشارته وطوع أمره عن طريق السحر الأسود. وكل قبيلة لها ساحر يسمى الحكيم، يعالج النساء بالعروق والأعشاب ويفرض سلطته وسحره من خلال ذلك.

قلت له:

- أي القبائل هي الأشهر في ممارسة السحر هنا؟

قال:

- كثير من القبائل القادمة من نواحي أكسوم تمارس السحر، ويمارس نساؤها الزار. لكن انتشر نفوذ السحر في أوساط الفُونْج نظراً لكونهم قوم السُّلْطَان نفسه، فاكتسبوا بذلك مرتبة خولتهم ممارسة السيطرة على غيرهم، ولذلك فقد اقتربوا من السحرة ليحيطوا أنفسهم بسياج من الرهبة والغموض، ولذلك كثر السحرة بينهم.

- لكني علمت من أحد زعماء الفُونْج أنهم يحاربون السحر والسحرة في هذه البلاد.

- بالفعل وكلامه صواب، رغم أن التعرف عليهم لإدانتهم ليس بالأمر السهل فجرائمهم لا تخلف آثاراً محسوسة.

- لكن هذا الرجل يزعم أن سائر الفُونْج يتميزون بخاصية تتبع ومعرفة السحرة. أخبرني أن الفُونْج يعتبرون زعماءهم سلاطين على

السحرة، ولذلك أشاع هؤلاء الزعماء أنه من الضروري أن يحتفظ كل زعيم في مجلسه بجرة يملأها ماء من سِنَّار، وإذا اقترب أي ساحر (مَصَّاص) من تلك الجرة فإن أمره سينكشف على الفور ويظهر له ذيل ضبع طويل يخرج من بين إليتيه فيتلاعب مهتزاً، ويراه الجميع فينكشف أمره ويعلمون أنه ساحر!

– وذلك هو السر في أن السحرة لا يقتربون من الزعماء حتى لا ينكشف أمرهم !

– نعم لكن المضحك هو أن كثيراً من الزعماء أنفسهم صدقوا هذه المقولة فأصبحوا يحتفظون بتلك الجرار المملوءة بالماء فعلاً. إلا أن بعض السحرة كانوا من الذكاء بحيث أنهم لاحظوا تأثير المتصوفة ورجال الدين على السُّلْطَان والمشيخات، وعلى العامة، فلبسوا ثياب الفقيه الصوفي، للتقرب من الملوك والزعماء. وانخدع الناس في سِنَّارْ بانتشار من يطلقون عليه (الفكي) أو (الفقيه) الذي يعرف الأسرار ويطرد الأشرار، ويعالج المرضى ويفك السحر، ويكتب الحجاب والتعاويذ.

– هذا كلام يدير الرؤوس!

– نعم ويعتقدون أن الطلاسم والأحجبة الإسلامية تتمتع بقوة، خاصة إذا كتبت بالقرب من مقر السُّلْطَان، وذلك لكون السُّلْطَان رجل مقدس!

حدثني «السَمَرْقَنْدِي» أنه ومن خلال اهتمامه بمعرفة عادات القبائل سأل بعض رجال البلاط عن مهمة (سِيد القوم) فأخبروه أنه قبل مجيء السُّلْطَان «عِمَارَة» كان ملوك المناطق يفحصون حكام مناطقهم التابعة لهم لتحديد مدى صلاحيتهم للحكم وإن وجد الواحد منهم غير لائق يُقْتَل. وقال:

- السُّلْطَان نفسه يخضع للفحص بواسطة مجموعة من رجال البلاط و(سيد القوم) المنوط به تنفيذ الإعدام السُّلْطَاني يقف على السُّلْطَان يومياً عند صلاة المغرب كجزء من الطقس اليومي حتى وإن لم يكن قد تقرر في ذلك اليوم قتل السُّلْطَان. والسُّلْطَان يتوقع أن يتم اغتياله عند كل مغرب شمس.

- وما الذي يخول (سيد القوم) هذه السلطة؟

- كونه (سيد قوم السُّلْطَان) ولا يتم اختياره إلا من الأُونْسَابْ أسرة السُّلْطَان (قوم الشمس)، وفور اختياره يصبح تلقائياً هو رأس الأُونْسَاب ولذلك فهو صاحب سلطة على السُّلْطَان نفسه، ومتولي الإعدام عند تبين عدم كفاءته للحكم. لكنه لا يقرر ذلك وحده بل هو المنفذ فقط فحياة السُّلْطَان في واقع الأمر هي في يد عدد من النبلاء الكبار في مجلس السُّلْطَان.

- وهل يخضع هؤلاء النبلاء لنفس ما يخضع له السُّلْطَان من عادة تنفيذ الإعدام إن أصبحوا غير صالحين؟

- نعم. وليس ذلك الأمر هنا في سنار فقط، بل حتى مشيخة العَبْدلاب في قرِّي لديهم (سيد قوم) أي منفذ طقس الإعدام، وواضح أنهم نقلوها من الفُونْج.

كاتب الحُجَجْ

أمضيت أربع سنوات في سِنَّارْ، مارست خلالها وظيفة كاتب الحُجَج، وعشقتها مثلما تمكنت من خلالها من معرفة أحوال رجال البلاط، وتوزيع الأطيان، ومُلاك الأراضي، والمزارعين، ومراتب رجال البلاط، والقواويد والشيوخ. فالأعلى رتبة هو الذي يستحوذ على أفضل الأطيان. كنت أشهد مجالس السُّلْطَان جميعها، ولا أتخلف عنها قط حتى لو كنت مريضاً. الجميع يحرص على الحضور ويطمع في هبة سلطانية. السُّلْطَان هنا يملك كل شيء، فهو يملك مناجم الذهب التي يؤول حصادها في معظمه إليه، بينما يؤول قدر ضئيل منها لملكية الدولة. ويملك الرقيق والعبيد، وله قوافل تجارية يرسلها إلى مصر والحجاز والهند. وهو مصدر كل شيء هنا، والجميع يدور حوله، فهو مصدر الأموال والثراء مثلما هو مصدر القوة والبطش والقوانين والنظام. وهو وحده من يملك الأطيان ويهبها لمن يشاء، ثم يسترد ثمنها ضرائب وإتاوات. أمس كتبتُ حجة سلطانية تم بموجبها تمليك أحد الوزراء أطياناً إلى الصعيد من خرائب (سُوبَا). أصبحت أحفظ ديباجة الحجة عن ظهر قلب وهي كما يلي:

باسمك يا كريم* بسم الله الرحمن الرحيم* الحمد لله الذي بلغ الرسول وآمنا بما يقول

(ملك الشمس والظل عِمَارَة بن عدلان بن أونسة).

حجة سلطانية، ووثيقة ملوكية، بمدينة سِنَّارْ المحروسة المحمية، أجَلَّها الله تعالى، لدى متوليها سلطان المسلمين، خليفة رب العالمين، القائم بأمور الدنيا والدين، المنصب لمصالح المسلمين، وناصر شريعة سيد المرسلين، وناشر لواء العدل والفضل على كافة العالمين، من أصلح الله به العباد، وأنار به البلاد، وقمع به أهل الكفر والمكر والعناد، وقهر به أهل الظلم والفساد، ورحمة الله للحاضر والباد، ملك الشمس والظل، ومقيم الحق والعدل، السُّلْطَان عِمَارَة بن الملك عدلان بن الملك أونسة نصره الله الرحمن الرحيم، بجاه القرآن العظيم، والنبي الكريم، آمين يا رب العالمين.

إلى حضرة كل من تقف عليه هذه الوثيقة، والناظر إلى ما فيها من الحقيقة، وبعد:

فإن السُّلْطَان، المحفوظ المبرور، المؤيد المنصور، ناصر الإسلام وخادم القرآن، عِمَارَة بن عدلان، أعطى وأمضى إمضاء تاماً لفلان ابن فلان، الأطيان المطرية والبحرية، الواقعة بمكان كذا وكذا، حدودها من الصعيد أطيان فلان بن فلان، ومن السافل أطيان فلان بن فلان، ومن الصباح أطيان فلان بن فلان، ومن الغرب الساحل الشرقي لبحر العاديك، ليعمر فيها من منحت له الأرض، وينتفع بأخذ خراجها، وتبقى الأرض عطاء ناجزاً له، ولذريته وذرية ذريته، إلى ما شاء الله، لا ينازعه فيها منازع، ولا يعارضه معارض، ومن يتعرض له بعد وثيقتي

هذه، فقد عرض نفسه للهلاك، والحذر ثم الحذر من المخالفة، والمخالف لا يلومن إلا نفسه.

حضر ذلك وشهد به:

ثم تكتب أسماء الشهود ومسطر الحروف الفقير إلى الله عَبْد السَّمِيع المغربي كاتب حُجَج السُّلْطَان وكفى بالله شهيداً

حرر ذلك في يوم كذا من شهر كذا سنة كذا من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

***

أدمن القائد «شَاوِرْ» زيارتي في كوخي في سِنَّارْ كل ليلة. كنت أعود متعباً من القصر فأجده جالساً ينتظر عودتي، وأتعمد الانزعاج من مثل هذه الزيارات غير المتوقعة، لكنه لا يأبه لمشاعري، أو أنه يفهم ثم يتغافل. كان يكثر الزيارات بغير سبب، ويتحدث حول موضوعات تافهة. ولم أفهم المغزى من زياراته المتكررة هذه، رغم أنه يتعمد التلميح في كل مرة عن كوني كاتب حُجَج السُّلْطَان. وفي مرة جاءني ليلاً يحمل عَمَار الحليب بنفسه، ففهمت حينها أن له غرضاً لا بد أن أعلمه. لكنه سرعان ما تطوع فكشف سبب هذا الاعتناء المبالغ فيه تجاهي، دون أن يكلفني مجهود السؤال. بادرني بالسلام وابتسامة متكلفة ظاهرة على محياه:

- السلام عليك يا خازن كنوز السُّلْطَان!

قلت وقد قابلت ابتسامته بابتسامة:

- وعليك السلام يا«شَاوِرْ». أنا كاتب حُجَج، ولست خازن كنوز. وكما ترى، ما عندي ذهب ولا فضة لأكافئك بهما على خدمتي وضيافتي!

قال وهو يناولني سقاية الحليب:

- أنت أغنى من السُّلْطَان نفسه لو تعلم، لكنك غشيم. هذه الوظيفة: "كاتب حُجَج السُّلْطَان" كنز من الكنوز.

قالها وهو يؤكد كل كلمة من عبارة "كاتب حُجَج السُّلْطَان"، ثم يتكيء على كلمة السُّلْطَان ويمدها طويلاً، وهو ينظر ناحية عمرة السقاية، ويحرص ألا تلتقي عينه بعيني. أخذت العمرة من يده دون اكتراث، ثم وضعتها ضجِراً جوار أحد أرجل العنقريب. قلت وأنا أحاول أن أنشغل عن النظر ناحيته، بالانهماك في إصلاح فراشي، لأعلمه أنني متعب، وأنني أتأهب للنوم:

- ما الذي يميز كاتب الحُجَج عن غيره من الكتبة يا «شَاوِرْ»؟

غمز لي بعينه، لكنه لم يشرح. لم يخالجني شك يومها في نزاهته، فابتسمت وظننت أنه يقصد أن قربي من السُّلْطَان فيه من الجاه ورفعة المكانة ما يجعله كنزاً من الكنوز. لم أفكر في أبعد من ذلك. لكنه كرر العبارات بطريقة أخرى ففهمت المقصود، وتأكدت مخاوفي الخفية التي كنت أدفعها بحسن الظن. قلت له:

- بصراحة ماذا تقصد أو ماذا تريد يا «شَاوِرْ»؟

– أطيان على البحر وساقية ورقيق.

قلت دون أن أنظر ناحيته:

– اطلبها من السُّلْطَان، وسوف يمنحك الأطيان، بكل تأكيد.

قال:

– يامغربي. أنا جندي، والجنود يمنحونهم الأطيان البعيدة عن البحر، وهي لا خير فيها. ولا يكون معها فَعَلَة لفلاحتها، ولا سواقي فكيف أفلحها، ومن أين أدفع إتاواتها وخراجها.

– لكن أنت تعلم أنني لا أقدر أن أمنحك أي حجة بدون علم السُّلْطَان. فما أنا إلا كاتب للحُجَج فقط ولست مانحاً. ولست من قرابة السُّلْطَان ولا عشيرته. أنا مغربي بالله عليك يا «شَاوِرْ» لا تجلب لي المصائب والمشكلات.

قال وقد غير نبرة صوته فجأة، وأخذ يضغط على أسنانه:

– أنت الذي ستجلبها على نفسك فعلاً لو لم تمنحني طلبي. أنا أحسنت إليك. وقطعت المسافات لأجلبك للسلطان من بادية البطانة يااا مغربي. كان بالإمكان أن أرجع وأقول إنني لم أجدك. أو أنك رحلت. فكر في هذا الكلام جيداً.

قلت محتجاً بانفعال:

– والسُّلْطَان! السلطااان يا «شَاوِرْ»!

لكنه لم يقف ليسمع ردي عليه، فقد خرج مسرعاً وتوارى خلف الكوخ. فهمت أنه خرج غاضباً. غاب عني بعد ذلك أسبوعاً كاملاً لم أره إلا من بعيد في مجلس السُّلْطَان. وكلما نظرت ناحيته بدا غاضباً أو لابساً قناع الغضب. لكنه بعد أسبوع أرسل إليَّ صديقه «الطِّرِيفِي»، وهو رجل طويل وسيم قوي البنية، وسريع البديهة وحاضر النكتة. لكن الذكاء والمكر اللذين في عينيه هما ما يميزه. «الطِّرِيفِي» جاء وشرب معي البُنَّ والقهوة، وكان ساكتاً على غير عادته. علمت أنه يريد أن يتكلم لكنه يعلم أن ما جاء من أجله ليس أمراً جيداً. قلت له:

– مالك يا طريفي؟ أنت ساكت على غير عادتك!

قال في صوت هادىء ينم عن الحزن لكني عرفت منه نبرة الإشفاق، أو اللوم والإدانة على خطأ شنيع.

– لماذا أغضبت صاحبنا يا «عَبْد السَّمِيع»؟

– من صاحبنا؟

– «شَاوِرْ» عقلك! ها ها ها.

ضحك ممازحاً، ففهمت أنه يقصد القائد «شَاوِرْ». «الطِّرِيفِي» يمتلك قدرة هائلة على تغيير طريقته في الكلام، ويستعين على ذلك بالنكتة والمزحة. عجبت من قدرته على التحكم في تلون مشاعره وتغيرها بهذه السرعة.

– صاحبك «شَاوِرْ» يريد أن أُزَوِّرَ له صكاً أو حجة تمنحه أطياناً وفَعَلَة دون علم السُّلْطَان يا «طريفي»! أيرضيك هذا؟

سكت طويلاً. اختفت ابتسامته وأخذ ينظر إلى الأرض وينكتها بعصاه ويخط خطوطاً على التراب. ثم جمع ثوبه للنهوض وقال وهو خارج:

– اتق شره. امنحه ما يريد!

قلت فزعاً:

– معقول يا «طريفي»؟ أنت تقول هذا؟ أنت فزعة أم وجعة؟

– أنا محضر خير، وواسطة صلح! وامنحني أطياناً بجوار أطيان القائد «شَاوِرْ»، لكن لا تخبره أنني طلبتها منك، حتى لا يغار أو يغضب. أريد أن أفاجئه بها .

قال هذا وأطلق ضحكة صاخبة. لكني بادرته قبل أن يخرج من باب الكوخ:

– والسُّلْطَان؟

قال وقد ولاني ظهره دون أن يلتفت حتى لا أقرأ تعابير وجهه:

– السُّلْطَان لن يعلم إلا إن أخبرته أنت.

– إن عرف بالأمر فسوف يؤذيني لا محالة.

أدار وجهه ناحيتي وأقبل عليَّ لينظر في عيني، فرأيت وجهاً مختلفاً عن الذي كان يضحك قبل لحظات، وصرامة تجسدت في عينين مخيفتين:

- والقائد «شَاوِرْ» يقدر أن يؤذيك أكثر من أذى السُّلْطَان نفسه. هذا الرجل شيطان لا يخشى أحداً. لا تقل إني لم أنصحك. في أمان الله.

بعدما خرج أظلمت الدنيا في وجهي. فهذا الرجل جاء يبتزني. ويهددني بصديقه «شَاوِرْ». لكني سرعان ما عدت لهدوئي بعد لحظات، فتمالكت نفسي رغم هذا كله، فقد رأيت في حياتي كثيراً من التنمر والتهديد، من الكبار أو الأقران، وقد أمضيت طفولتي وشبابي المبكر مشرداً في طرقات المغرب.

في اليوم التالي كنت أتجول في السوق كعادتي كل يوم لأتعرف على الجديد في البضاعة، فلمحت «الطِّرِيفِي» يسعى خلفي. خففت من سرعتي في السير فقد كنت سريع الخطوة. وما هي إلا لحظات وإذا «الطِّرِيفِي» يلحق بي ويحدثني بلهجة لطيفة:

- الخزين!

قلت مندهشاً؟

- أنا؟

- نعم أنت!

- أنا «عَبْد السَّمِيع» يا طريفي. كيف خزين؟

– خزين كنوز السُّلْطَان. خزين و(دُخْرِي الحُوبَة) للأيام يا «عَبْد السَّمِيع» يا مغربي. يا حبيبنا!

لم يتركني لأستجمع أفكاري حتى أرد عليه فبادرني:

– أنت معزوم عندي باكر الخميس بعد صلاة المغرب. تعال صل بنا المغرب. أحب أن أسمع صوتك الجميل في القراءة يا مغربي.

– والمناسبة؟

– تعال وأنت تعرف.

توجست خيفة من هذه الدعوة المريبة، التي لابد أنه يكمن وراءها شيء مريب مثلها. ولم أملك إلا الإجابة فأنا غريب على هذه المجتمعات. وعدم إجابة الدعوة عندهم يعتبر وقاحة وأكبر إساءة. ترددت ولكن قلت بعدها:

– إن شاء الله.

تهلل وجهه ومضى على الفور تجاه قصر السُّلْطَان. يبدو أنه أسرع الخطى ليختفي قبل أن أغير رأيي. «الطِّرِيفِي» من الوجهاء الذين يدخلون كل بيت ويتحدثون مع النساء، وهن يحببن طريقته في الكلام والطُرَف التي يرسلها هنا وهناك. وكان بارعاً في الغزل، والنساء يرسلنه لحاجتهن، فيقضيها لهن، فهن يعلمن علاقته بجميع أهل المدينة، ويعلمن أنه كتوم لا يبوح بأسرار أحد من الناس. وزوجته من المقربات لنساء

التجار. حرصت على تذكر الدعوة والوصول لبيته قبل أذان مغرب يوم الخميس. كان في انتظاري، ولما رآني فرح واستقبلني بحفاوة، لاحظت فيها المبالغة. فقد كان معي في السوق قبلها بيوم. عبارات الترحيب كانت أكثر من المعتاد. توجست في نفسي ولم أبدها له، لكني تساءلت عما يحدث. قدم لي عصير الليمون الممزوج بالعسل. شربت نصف الكوب وقمت لأتوضأ، إلا أنه أَلَحَّ أن أكمل شرب النصف الباقي! امتثلت وشربت على عجل، ثم قمت لأتوضأ.

جلب إبريق الوضوء، وأصر أن يصب لي الماء لأتوضأ. أحرجني تصرفه هذا فامتثلت صامتاً. ثم قمت للصلاة، فأقامها وقدمني إماماً، فصلينا جماعة. وبعدما قضيت الصلاة التفت خلفي فرأيت أن نسوة كن يأتممن بصلاتي. وكانت فيهن زوجة «الطِّرِيفِي»، وابنته وامرأة أخرى لم أرها من قبل، فقدَّرتُ أنها من نساء التجار. كانت تلبس ملابس من الحرير، وحول أذرعها وعضديها دمالج الفضة، وفوق كاحليها الخلاخيل، وصدرها مثقل بالحلي الذهبية اللماعة، وكذا يداها، وعيناها مزينتان بالكحل. وكان معها وحولها عدد من الخادمات يحطن بها. رمقتني بنظرة خاطفة، ثم قامت فقام «الطِّرِيفِي» منزعجاً، وشدني من يدي لأقوم فامتثلت. اقتربت المرأة منا في حين وقفت بقية النساء في أماكنهن قائمات. تحدثت المرأة بصوت خافت وكأنها تحدث نفسها. قالت دون أن تنظر ناحيتي:

– إذن فأنت «عَبْد السَّمِيع»! توقعت أن تكون أكبر سناً.

- عفواً. من.

غمزني «الطِّرِيفِي» على يدي التي بقي ممسكاً بها ولم يتركها منذ أن انهضني من سجادة الصلاة. فهمت أنه ينبهني ألا أقاطعها، فلم أكمل العبارة التي بدأتُها. كنت أريد أن أعرف من تكون هذه المرأة، ولكني سكت بعدما نبهني.

- أعرف أنك كاتب مولانا. وطالما ائتمنك فأنت عندي أمين. أريدك أن تكتب لي حجة الأطيان المجاورة لأطيانه على (بحر سُوبَا). تلك الأطيان الكبيرة. أظنك تعرف حدودها. واجلب لي صك الحجة غداً في القصر. «مستورة» خادمتي حين تراك سوف تقودك لجناحي مباشرة. ولك مني الهدية.

بعدما قالت عبارتها تلك عرفت أنها من نساء السُّلْطَان. وقبل أن أسألها مستوضحاً تكلم «الطريفي»:

- و«للطريفي» حجة الأطيان الشرقية، يا ستنا ولـ«شَاوِرْ» صديقي الأطيان التي بجوارها!

- و«للطريفي» حجة الأطيان الشرقية هدية مني، حاضر! تستأهل أنت وأهلك. فأنت كريم ولا تنسى أصدقاءك. ولصاحبك «شَاوِرْ» الأطيان التي بجوارها. هه! لا تطمع كثيراً يا «طريفي»!

استفزني هذا البرود، وطريقتها في توزيع أطيان السُّلْطَان، ومنح حُجَج الصكوك بغير تردد، فهذه الميزة ليست إلا عند السُّلْطَان وحده،

فهو الذي يملك الأطيان، وهو الذي يمنحها ويمنعها. حاولت أن أتكلم معترضاً إلا أن «الطِّرِيفِي» لم يترك لي الفرصة في الكلام، فمضي يشكرها ويثني عليها. وأيقنت من ثنائه ومخاطبته لها بيا ستنا أنها إحدى نساء السُّلْطَان بلا ريب. وهل نساء السُّلْطَان يملكن من السلطات ما يملكه السُّلْطَان؟ لا أظن هذا. لكنها لم تترك لي فرصة الاعتراض، أو مجرد إبداء رأيي. كانت تتكلم بثقة مفرطة، وهدوء قاتل. ولا تنتظر مني جواباً بل لم تكن تخاطبني أصلاً، ولم تنظر ناحيتي ولا مرة. أما «الطِّرِيفِي» فقد كان فرحاً بها. وانصَرَفَتْ فتبعتها جميع النساء، بمن فيهن زوجة «الطِّرِيفِي» وابنته. الجميع خرجوا في إثرها وتركوني واقفاً عند سجادة الصلاة. حتى «الطِّرِيفِي» نفسه خرج يهرول وراءها، يرفدها بعبارات الثناء وكلمات الشكر. وعندما عادوا كنت قد انصرفت من الباب الآخر الجانبي.

أمضيت ليلتي كلها قلقاً ساهراً، أفكر فيما حدث في بيت «الطِّرِيفِي». فهل أخبر السُّلْطَان بما جرى فيصب غضبه على زوجته وعلى «الطِّرِيفِي»، أم أكتب الحجة ثم أمضي بها للسلطان صامتاً، فإن سألني أخبرته، وإن لم يفعل سكت عن الأمر كله وكنت شريكاً في الجريمة. مع أني لا أجني من ورائها أطياناً ولا مالاً؟ ولو أمضيتها وامتثلت لامرأة السُّلْطَان، فكيف أضمن أنها و«الطِّرِيفِي» لن يفعلاها مرة أخرى. ولو اعترضت على منح القائد «شَاوِرْ» تلك الأطيان، فأنا قطعاً من الهالكين. ثم هل سيكون خنوعي هذا وسيلة لابتزازي وإذلالي في الأيام القادمات؟ مالي أنا وكتابة حُجَج السُّلْطَان؟

استخرت الله تعالى في تلك الليلة، ثم نمت على وضوء. فرأيت في منامي أني مع «صُلَيْحَة» أشكو لها ما دار من «الطريفي» وزوجة السُّلْطَان. وأنها قالت لي:

– أنت بقيت تكتب الحُجَج طوال هذه السنوات يا «عَبْد السَّمِيع» فهل حدث يوماً أن كتبت حجة إلا في حضور السُّلْطَان وفي مجلسه؟ وهل تصبح تلك الحُجَج موثقة عندما تكتبها، إلا بعد أن يضع الشهود أختامهم عليها في ذات الجلسة، بعد أن تقرأها على المجلس بصوت عال، ثم يضع السُّلْطَان ختمه بعد ذلك؟ وهل للحُجَج قيمة بدون أختام الشهود وختم السُّلْطَان؟ هل هي إلا مجرد حبر على قراطيس؟

فرحت جداً لهذا الكلام. ثم صحوت مبكراً في صباح اليوم التالي، فصليت الفجر. وكنت نشيطاً مستبشراً، وكان حديث «صُلَيْحَة» كله بتفاصيله عالقاً في ذهني، وكأنها قالته في اليقظة وليس في المنام. بل إن صدى صوتها مازال يرن في أذني في ذلك الصباح، حتى لم أعد أفرق بين اليقظة والمنام. ثم إني قلت لنفسي إني توهمت ذلك الحلم، وهو لم يحدث ولم أره أصلاً، وأن ما ظننته حلماً ليس هو إلا من أحاديث النفس.

عندما عدت من جولتي الصباحية كان «الطريفي» جالساً داخل كوخي ينتظرني. لكني لم أكلمه حتى ذهبت فقضيت حاجتي، ثم عدت فتوضأت وصليت صلاة الضحى. ثم دعوت الله سراً أن يصرف عني

السوء، ويجنبني مكره. ثم قمت فأحضرت القرطاس والمحبرة صامتاً دون أن أفتح فمي بكلمة، وبدأت أكتب تلك الحُجَج المزورة. والطريفي يملي حدود الأطيان، وأسماء الفَعَلَة الذين سيفلحونها، وأسماء الشهود. فكتبت حُجَج التمليك له، ولشاور، ولزوجة السُّلْطَان! وبعدما فرغت من الكتابة ناولته تلك الحُجَج ثم قلت:

– هل تريد أن أكتب لك حجة أخرى؟

فعجب «الطريفي» من ثقتي الزائدة، وسرعة إنجاز تلك الحُجَج الثلاث! وأنا الذي كنت خائفاً من كتابتها بالأمس. قال لي مبتسماً:

– مشكور يامغربي، ما قصرت أبداً. لكن لابد أن تعلم أن هذا الأمر سيظل سراً بيننا وبينك، ولو تحدثت به مع أي كائن فلا تلومن إلا نفسك.

طوى تلك القراطيس، وقام بتقبيل رأسي قبل أن يغادر كوخي فرحاً محبوراً. وفهمت أن تقبيل رأسي هو نوع من الاعتذار اللطيف بعد التهديد، وليس شكراً لكتابة الحُجَج!

يبدو أن ثقة «الطريفي» في نفسه قد أنسته أن يأخذ عليَّ العهود والمواثيق، أني لن أتحدث، أو ربما ظن أني بمجرد كتابة تلك الوثائق قد أصبحت شريكاً في الجرم، وأنني لن أجرؤ أن أشي به، مثلما أنني لن أجرؤ أن أشي بنفسي، وإلا أوقعتها في ورطة لا مخرج منها، والسُّلْطَان لا يتسامح في مثل هذا العمل. فالخيانة هي أكبر جرم في هذه البلاد، وعقوبتها الضرب بالسيف.

إلا أن «الطريفي» لم يكن قد حضر مجلس السُّلْطَان قبل هذا اليوم. ولذا فهو بكل تأكيد لا يعرف طريقة كتابة الحُجَج السُّلْطَانية. وإلا لما أوقع نفسه في هذه الورطة، ولا زوجة السُّلْطَان فهي لا تعرف تلك الإجراءات، ولم تسمع بها. ويبدو أنها ظنت أن كاتب حُجَج السُّلْطَان هو وحده من يمنح الوثيقة مصداقيتها، فطمعت في الحصول على الأطيان بهذه السهولة. لكن لماذا سمح القائد «شَاوِرْ» بذلك، وهو الذي يشهد مجلس السُّلْطَان، ويعرف إجراءات الكتابة؟ لابد أن «الطريفي» لم يأخذ برأيه في هذا، ولابد أن «شَاوِرْ» لم يكن يريد كتابة الحُجَج بتلك الطريقة. ولابد أن لديه فهماً آخر، مغايراً تماماً. لأن هذه الطريقة سوف تنتهي «بالطريفي» وزوجة السُّلْطَان إلى طريق مسدود، نهايته الفضيحة المدوية ثم ضرب الرقاب.

وبالرغم من كل هذا، إلا أنني عاودتني الوساوس والشكوك، فور مغادرة «الطريفي» وهو يحمل تلك القراطيس، ولم أعرف ماذا أفعل ولا إلى من ألجأ! فأنا ما زلت شريكاً في جريمة تزوير الحُجَج السُّلْطَانية، حتى لو لم يوقع عليها الشهود، ولم يختمها السُّلْطَان بختمه، وذلك لأن خط يدي يشهد عليَّ ويدينني بالجرم المبين.

خرجت من الكوخ مثقلاً بالهموم، أَجُرُّ خطاي التي قادتني دون تفكير إلى قصر السُّلْطَان. وفي الطريق رأيت «مالك» سيد القوم - سياف الملك - يسير نحو القصر، فوقع قلبي عند قدمي من الخوف، وتخيلته وقد شهر سيفه عالياً فوق رأسه، ليهوي به على رقبتي، فيفصم رأسي عن جسدي في مثل لمح البرق.

السُّلْطَان عَبْد القادر

مات السُّلْطَان «عِمَارَة ولد عدلان ولد أونسة» (ملك الشمس والظل)! ومؤسس الدولة. مات فجأة وهو جالس على (الككر) كرسي السلطنة. وقع على وجهه فبهت الجميع وتهيبوا الاقتراب منه إلا «مالك» (سيد القوم). هو الوحيد الذي كان يحق له لمس السُّلْطَان. لما خرَّ فوجيء «مالك» في أول الأمر فلم يتمكن من الإمساك به قبل أن يمس الأرض، رغم أنه كان هو الأقرب منه مسافة. لكنه سرعان ما تمالك نفسه فكان أشد الحاضرين ثباتاً. اقترب منه بحذر ثم وضع يده على عنقه، ثم وضع أذنه فوق صدره محل القلب. فتأكد أنه لا ينبض. ثم رفع رأسه وتكلم فقال:

– إنا لله وإنا إليه راجعون. والحمد لله على ما قدر. عظم الله أجركم في مولانا السُّلْطَان «عِمَارَة». الوزير «عَبْد القادر» والأمير «نايل»، والمقدوم «أونسة» تقدموا لحمل جثمان الوالد وتجهيز الجنازة.

أسرع الثلاثة الذين دعاهم «مالك» سيد القوم وأذن لهم فتقدموا واقتربوا من الجثمان، لكنهم قبل أن يحملوه لتجهيزه أجلسوا (مُقَدَّمَ القَوَاوِيدْ) - قائد جيش السُّلْطَان – على ككر السُّلْطَان حتى لا يبقى خالياً، ثم انصرفوا لتجهيز الجنازة. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي سمع الناس فيها صوت «مالك» سيد القوم. ولابد أن السُّلْطَان قد

أوصاه منذ مدة طويلة بمن يخلفه على العرش فهو الوحيد المخول بتنفيذ الوصية. ولما دعا الوزير «عَبْد القادر» الابن الأكبر للسلطان ثم الأمير «نايل» الابن الأصغر ثم المقدوم «أونسة» خال السُّلْطَان عرف الجميع أن السُّلْطَان قد أوصى للوزير «عَبْد القادر» ليخلفه بعده، وذلك وفقاً لترتيب تسمية «مالك» سيد القوم لهم فهو حافظ أسرار السُّلْطَان ورئيس شئون القصر.

وعلى الفور تم تجهيز الجثمان وإحضار الجنازة للمجلس. وقبل حملها لمثواها الأخير جاء الوزير «عَبْد القادر» الابن الأكبر للسلطان يمشي بين «مالك» سيد القوم (خال السُّلْطَان) والمقدوم «أونسة» - وهو خال السُّلْطَان كذلك - فأصعداه إلى الدكة، وأجلساه على الككر، وألبساه الطاقية أم قرين، وباركاه إعلاناً بأنه سيكون هو السُّلْطَان القادم. ثم قام أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فعرفت بعد ذلك أن هذا الطقس يسمى التكليف الذي يسبق حفل إجلاس الوزير «عَبْد القادر» سلطاناً متوجاً. لكنه أثناء مراسم دفن الجثمان يسمى السُّلْطَان المكلف، إلى أن يغيب جثمان المتوفى داخل القبر.

كنت أراقب هذه المشاهد عن قرب لكوني أحد رجال البلاط السُّلْطَاني. وفور إجلاس السُّلْطَان «عَبْد القادر» على الككر ومباركته، جاءت النساء كبيرات السن، فأطلقن الزغاريد احتفاء به، ولم تتم مواراة الجثمان الثرى، ولم يتم اخراج الجنازة من مجلس السُّلْطَان بعد.

ثم عند خروج الجنازة بدأ الضرب على النحاس والطبول بإيقاع حزين، فعلم الناس بموت السُّلْطَان، وحضروا للصلاة عليه ودفنه. وما هي إلا ساعة وتقاطر كثير من النبلاء وشيوخ القبائل الذين كانوا في سِنَّارْ لحضور الجنازة وتشييع الجثمان وتقديم العزاء، في موكب حزين مهيب. كان رجال ونساء كل قبيلة يأتون مجتمعين بآلاتهم وأبواقهم، والنساء يهزجن بالمناحات، إلى أن تمت مواراة الجثمان الثرى.

كان موت السُّلْطَان «عِمَارَة» فاجعة للسلطنة، لكنه جاء رحمة بي وبمن حولي، بل كان رحمة لزوجة السُّلْطَان والقائد «شَاوِرْ» و«الطريفي». أنقذني موته وأنقذهم كذلك من قتل محقق، فلو كان السُّلْطَان قد اكتشف قبل موته أني قمت بكتابة حُجَج الأطيان دون علمه، فتلك خيانة جزاؤها ضرب العنق بالسيف. ولم يكن ليشفع لي أني كنت ضحية ابتزاز، أو أني كنت أنوي أن أخبر السُّلْطَان بأفعال القائد «شَاوِرْ» و«الطريفي» والأميرة زوجته، أو أني كنت الضحية. وبكل تأكيد كان سيقتل الجميع، ولن تسلم زوجة السُّلْطَان كذلك من القتل ربما، وكل من وضع ختمه على تلك الحُجَج أو شهد عليها زوراً من بقية الشهود. وأظن أن أحد هؤلاء كان ينوي تزوير أختام الشهود، فلا أحد من الشهود له مصلحة في تزوير حُجَج الأطيان.

وبقدر ما كنت حزيناً على موت السُّلْطَان كان قلبي يرقص فرحاً لنجاتي من القتل. وبالرغم من أنه لو تم استخدام ختم السُّلْطَان أو تزوير

أختام الشهود فلن يشك السُّلْطَان الجديد أن تلك الحُجَج كانت بأمر من السُّلْطَان «عِمَارَة» بكل تأكيد! وأن كاتب الحُجَج «عَبْد السَّمِيع المغربي» هو فوق كل الشبهات! بل إن خطه هو الذي يؤكد صحة كل حجة مكتوبة، فهو لا يكتب إلا بأمر من السُّلْطَان! إلا أنه بموت السُّلْطَان «عِمَارَة» بطلت تلك الحُجَج تلقائياً وأصبح لا معنى لها ولا قيمة. فقد تم إبطال أختام السُّلْطَان «عِمَارَة» في نفس يوم موته، وذلك بأن قاموا بوضع علامة عليها بالرصاص المذاب، تدل على بطلانها، وتحمل تاريخ الإبطال. وبذلك فلن يتمكن أي إنسان من استخدام أختام السُّلْطَان بعد وفاته. الحُجَج السُّلْطَانية تحمل اسم السُّلْطَان وألقابه، والدعاء له، وديباجة الحجة، وافتتاحيتها، وتاريخها، مثلما أنها تدل على هوية السُّلْطَان في كل سطر من سطورها. ولابد أن السُّلْطَان الجديد سوف يقوم بتغيير كل هذا عند كتابة الحُجَج الجديدة في عهده، بما في ذلك الديباجة والصياغة بأكملها.

جلس «عَبْد القادر» على الككر إذاً، سلطاناً جديداً. وجاء رجال البلاط والأونساب والحكام والشيوخ فبايعوه! ثم بايعه بقية الناس. وجاء (مقدم السَّوَاكْرَة) لتنفيذ أوامر السُّلْطَان بقتل إخوانه الأمراء القواويد، المحبوسين في (قصرالسُّوكَرَة) وفقاً لعادات ملوك الفُونْج الأقدمين. لكن المدهش هو أن السُّلْطَان «عَبْد القادر» بعد أن تولى الملك لم يقتل أخاه «نايل» على الفور، وبدلاً من ذلك أبقاه إلى جواره وزيراً،

مخالفاً بذلك الأعراف والتقاليد الفُونْجية. كما أرجأ الأوامر لـ (مقدم السَّوَاكْرَة) بقتل بقية إخوانه، فبقوا محبوسين في انتظار أوامر السُّلْطَان بإعدامهم، بينما انشغل السُّلْطَان الجديد بأشياء أخرى.

علمتُ بعد ذلك أن «نايل» هو ابن أخت «مالك» (سيد القوم)، لكن السُّلْطَان «عَبْد القادر» ليس هو ابن أخته، بالرغم من كونه من الأونساب، وينتمي إلى (بيت الشمس). ولهذا فلابد أن اتفاقاً سرياً بعدم قتل الوزير «نايل» تم بين «مالك» والوزير «عَبْد القادر» قبل أن يتم إعلانه سلطاناً.

شهدت مراسم تزويج السُّلْطَان «عَبْد القادر»، وذلك بعد أن أجلسوه على الككر مباشرة فقد زوجوه امرأة من نسل (بيت الشمس) يلقبونها (بنت عين الشمس)، واسمها هو الأميرة (سِتْ النِّسَا). وبعد ذلك حملوها على عنقريب مصنوع من خشب (السرطان) إلى حوض الجندي، وحبسوها فيه سبعة أيام، ليتم تجهيزها قبل أن يدخل عليها زوجها السُّلْطَان، حيث تقوم كثير من خادماتها بتزيينها. يدلكن جسمها بالعطور، ويمشطن شعرها ضفائر، ويلبسنها الرحط الذي سوف يقطعه الملك إيذاناً بانتقالها من كونها فتاة إلى كونها امرأة، وأنها صارت زوجة السُّلْطَان.

أظهر السُّلْطَان «عَبْد القادر» اهتماماً كبيراً بالإسلام، فقد كان مشهوراً بالورع والتقوى منذ صغره. وفور توليه أمر السلطنة وجه اهتمامه لمحاربة

القبائل الوثنية في جبل مويا وسُقدي، الذين بدلاً من مجيئهم للاحتفال بتنصيب السُّلْطَان الجديد صنعوا احتفالهم المحلي، الذي يقدمون فيه فتاة قرباناً للآلهة كي لا تمنع عنهم نزول الأمطار! وذلك كعادتهم كل عام. السُّلْطَان «عِمَارَة» كان في أول عهده يتغاضى عن بعض وثنيتهم لأنه كان يتألفهم للإسلام. وكان يعتقد أن تحولهم ليصبحوا مسلمين هي مسألة وقت ليس إلا. وكان يرسل الجنود ليصنعوا احتفالات بديلة عن احتفال الوثنيين في جبل مويا. وفي آخر حياته أرسل إليهم الفكي «بخيت» ليعلمهم الدين، لكنهم قتلوه. وقد أشيع إن العنج الفارين من (سُوبَا) إلى تلك المنطقة هم الذين قتلوه.

حينما ذهب إليهم الفكي «بخيت» أول مرة بدأ بوعظهم، وقال لهم إن الفتاة التي ستذبحونها قرباناً لا ذنب لها. ولكنهم قالوا إن هذه عادات الأجداد، وأن اختيار الفتاة يكون بواسطة الآلهة. فهم يجمعون جميع فتيات المنطقة ليقترعوا عليهن، ومن تقع عليها القرعة تكون الآلهة قد اختارتها. وساحرة القرية هي التي تتولى هذه الطقوس. ساومهم الفكي «بخيت» على شراء الفتاة، وقال لهم إنه سوف يقدمها قرباناً للآلهة بنفسه. وبما أنهم كانوا يعلمون أنه يخادعهم فقد قبلوا المساومة ليقبضوا الثمن. وبالفعل دفع ثمنها ذهباً، والسكان أعطوه الفتاة فأخذها إلى كوخه. لكن الناس وجدوهما مقتولين في صباح اليوم التالي، ولم يعرف من الذي قتلهما. ولما وصل الخبر إلى السُّلْطَان «عَبْد القادر» أرسل أحد معاونيه

جاسوساً للمنطقة، وكان اسمه «دَكَّام» فدخلها وبقي مع السكان نحواً من شهر، ثم عاد وأخبر بتفاصيل ما رأى.

قال للسلطان إن أحفاد وأبناء بعض الفارين من (سُوبَا) عاصمة علوة، قد تجمعوا بعد تدميرها في منطقة جبل مويا وسُقدي، وتواصلوا مع السكان الوثنيين، واتخذوا صخرة مقدّسة. ثم قاموا بتنصيب ملك عليها، أطلقوا عليه اسم (ملك مملكة علوة). وذبح كاهنهم ضحيّة، ورسم بدمها إشارة الصليب على جبهة الملك، وعلى الصخرة. ثم قام ملكهم المُنَصَّب بنفس العمل، فرسم الصليب على جبينه وعلى الصخرة وأطلقوا على تلك الصخرة والقرية التي أنشأوها اسم (سُوبَا). وقد سمعهم يحلفون بها ويقولون إنه لا يجوز لهم أن يحنثوا بهذا القسم، فيقولون لمن يحلف: "احْلِفْ بـ(سُوبَا) دار الجِدْ وَالحَبُّوبَة اللِّي يِطَفِّحْ الحَجَرْ ويِغَطِّسْ الكَرْكَعُوبَة". فيقف الحالف على كوم من النفايات المحروقة - تذكاراً لمدينة (سُوبَا) المدمرة - ويقدّم له قليل من مسحوق الملح والدقيق، ثم يلتقط من الأرض قطعة صغيرة من الخشب، ويكسرها فوق رأسه، ثم يؤدّى القسم.

قال «دَكَّام» إنه سمع الناس هناك يتهامسون أن سكان (سُوبَا) القديمة هم من قتل الفكي «بخيت» وقتل الفتاة. وأن أحدهم هو الذي دس وشاية في أذن الساحرة، فقال لها إن الفكي «بخيت» قد قام بتدنيس القربان، بأن اعتدى على الفتاة، فلم تعد عذراء. وبذلك فلن يقبل منهم

القربان، حيث انتفى شرط العذرية في الضحية. ولذا فلابد من قتلهما معاً، وتقديمهما قرباناً بديلاً للآلهة لترضى عنهم، حتى ينزل المطر. وبذلك أمرت الساحرة بقتلهما على الفور في تلك الليلة فقتلوهما.

ولما تأكد للسلطان أن ما جاء به «دَكَّام» صحيح ومطابق لمعلومات جواسيس آخرين أرسلهم لنفس المنطقة، وتأكد له أنهم هم من قتل الفكي «بخيت» قرر الإغارة عليهم، والقضاء على أي وجود لهم أو تجمع في جبل مويا وسُقدي. وعلى الفور تحرك الآلاف من جنود السُّلْطَان وعلى رأسهم (مُقَدَّم السَّلْطِيَّة) – المسئول عن صيد الرقيق – وحاصروا المنطقة، فبدأ الذعر يدب في سكان الجبل ولاذوا بالفرار إلا أن جنود السُّلْطَان انتهزوا الفرصة فقبضوا على الكثير منهم أسرى.

رأيت القائد «شَاوِرْ» مبتهجاً بعد تلك الغارة بأيام قليلة. ولما رآني انطلق يحدثني بحماس عن القضاء على تلك القبائل الوثنية التي تقدم القرابين للآلهة. وعجبت في نفسي، فهو حين قابلني منذ سنوات لم يكن يعرف قراءة الفاتحة. لكني أدركت أن فطرته سليمة وأن هؤلاء القوم من أمثال القائد «شَاوِرْ» هم مسلمون بالفطرة، وأن عقائدهم سليمة في معظمها، لكنهم يحتاجون من يعلمهم العبادات والمعاملات. والأعجب من هذا كله هو أن الجيش الذي بعثه لمحاربة هؤلاء الوثنيين كان في معظمه من الوثنيين، أو ممن لا دين لهم، وقليل منهم من المسلمين.

قلت لشاور:

– كم نصيبك من الأسرى والرقيق يا «شَاوِرْ» من هذه المعركة؟

قال:

– رجلان وخمس نساء!

– وكيف حصلت عليهم؟

– يوزعهم «مُقَدَّم السَّلْطِيَّة» على القواويد والجنود!

قلت مندهشاً:

– إذا كنت أنت وحدك قد حصلت على سبعة من العبيد، فمعنى هذا أن عدد الأسرى كبير جداً!

قال ضاحكاً:

– ليس كلهم من نصيبي يا مغربي. فنصيبي هو امرأة واحدة فقط. وسوف أبيعها وأشتري ملابس بثمنها. لكن البقية هم في عهدتي، ويتم تخصيصهم بعد ذلك على القادة ورجال البلاط. لابد أنك تذكر تلك الفتاة؟ «تنتنة»! من أين جاءت وكيف تم تخصيصها لك؟ هي كانت في عهدتي من معركة سابقة. ثم جاء الأمر بمنحها لك ضمن الضيافة لتخدمك، يوم أصبحت كاتب حُجَج السُّلْطَان.

وحين لاحظ «شَاوِرْ» حيرتي مضى مسترسلاً:

– الرقيق والعبيد مرتبطون بالحروب هنا يا مغربي. فمن يخرج على السُّلْطَان أو يحاربه يقتل، ومن يستسلم يتم أسره واسترقاقه.

أردت تغيير الحوار عن هذا الموضوع البشع، فقلت له:

- ماذا حصل لتلك الحُجَج السُّلْطَانية يا صديقي؟

لم يبد متفاجئاً بالسؤال فقد توقع أن أسأله. بل أنا الذي فوجئت بإجابته. وكان بإمكانه أن ينكر أي علم له بها، فهو في ظاهر الأمر لم يشارك في طلبها بعد تلك المرة الأولى، ولم يشهد كتابتها. وإنما كان يفعل ذلك بواسطة صديقه «الطريفي»، مستغلاً علاقته بزوجة السُّلْطَان، ثم علاقته بي. لكنه أدهشني حين قال بكل صراحة:

- بطلت بموت السُّلْطَان «عِمَارَة»!

- ولكن هل كان بإمكانكم تزوير جميع الأختام يا «شَاوِرْ»؟

- أعرف صانع الأختام فهو صديقي، وهو الذي عنده قوالب جميع تلك الأختام.

قلت فزعاً:

- وختم السُّلْطَان؟

- إلا ختم السُّلْطَان، فلا نعلم من أين جيء به، بل ويصعب تزويره أو تقليده. لكن زوجة السُّلْطَان كانت تعلم أين يضع السُّلْطَان أختامه، وكان ختمه في متناولها. ولذلك فقد اتفقت معنا إن جعلناك تكتب لها حجة الأطيان أن تمنحنا أطياناً مثلها، وتختم تلك الحُجَج بختم السُّلْطَان الأصلي يا مغربي.

– المدهش هو أن السُّلْطَان مات في نفس يوم كتابة الحُجَج يا «شَاوِرْ».

– لن تصدق إن قلت لك أنها لم تكن تعلم بإجراء إلغاء الأختام في نفس يوم موت السُّلْطَان. ولهذا فعندما ذَهَبَتْ لأخذ ختم السُّلْطَان كان «مالك» سيد القوم قد أخذه ليقوم الصانع بإبطاله بالرصاص المذاب.

– لكني لن أكتب لكم أي حجة بعد اليوم، فقد فعلتها من قبل، وأظن أنني غير ملوم بعد هذا. ولن أبلغ عنكم هذه المرة لكن إن طلبتم مني في المرة القادمة فربما أفعلها.

– تفعل ماذا يا مغربي؟

– أبلغ السُّلْطَان!

– يا لك من كذاب كبير!

– لماذا تقول هذا يا «شَاوِرْ»؟

– لأني أعلم أنك لن تفعلها أبداً. نحن نعرفك أكثر من نفسك التي بين جنبيك يا «عَبْد السَّمِيع». أنت رجل طيب القلب جداً.

قال هذا وضحك ثم انصرف. كان مسروراً لانتصار جيوش السُّلْطَان، ولامتلاك عدد من الرقيق الذين أسروهم عند جبل مويا وسقدي!

***

أجهورية

اشتُهِرَ الشيخ «إدْريسْ» ود الأرباب في السلطنة بأجمعها رغم أنه كان شاباً حدثاً، فقد بَذَّ عُلماءَ زمانِهِ، وتفوق على شيوخه في الفقه والدين. كان ذكياً لماحاً، وفوق هذا كان جريئاً في الحق. تفقه على مذهب مالك، واشتهر حتى عرفه شيوخ المذهب في مصر. كان أول رجل في الدولة السنارية يتخذ موقفاً حازماً من التبغ والتُنْبَاك، ففي حين أفتى بإباحة شرب البن والقهوة إلا أنه أفتى بحرمة الدخان والتُنْبَاك، والناس سكتوا ولم يجادلوه، فقد كان فقيهاً.

حدثني صهري الحاج «عَبْد الحميد اللَّقَّاني» أن ابن عمه التاجر الفقيه «إبراهيم اللَّقَّاني»، الذي كان فقيهاً شهيراً على المذهب المالكي، تتلمذ على يد الشيخ «إِدْرِيسْ»، وتبعه في تأييد تلك الفتيا، رغم أن «إبراهيم اللَّقَّاني» كان أكبر من الشيخ «إِدْرِيسْ» وأسبق منه في طلب العلم. الناس كانوا يصفون «إِدْرِيسْ» بصفات شتى فهو رجل صالح مبارك، ولذا فقد أسبغوا عليه صفة الولاية رغم أنه لم يطلبها ولم يعجبه اللقب، لكن الناس هنا حين يعجبهم العالم أو الزاهد أو الفقيه يبالغون في وصفه ويحدثون عنه أنه يأتي بالمعجزات وخوارق العادات ويسبغون عليه لقب الولي.

حكى لي صهري الحاج «عَبْد الحميد اللَّقَّانِي» أن وفداً من تجار الدولة السنارية الذين يتنقلون بين الديار المصرية والسنارية كانوا برفقة ابن عمه التاجر الفقيه الشيخ «إبراهيم اللَّقَّانِي» المالكي. وقد كان يعمل بالتجارة بين مصر وسِنَّارْ. لكنه قبل ذلك كان تلميذ الشيخ «إِدْرِيسْ»، وهو من الأعلام في علم الحديث والدراية والفتاوى. سألوه عن حكم شرب الدخان الذي انتشر وذاع في هذه الأزمان، فأفتاهم بحرمته لكونه يغيب العقل، وأخبرهم أن هذه فتيا الشيخ «إِدْرِيسْ» كذلك، وأَلَّفَ لهم رسالة خاصة حول هذا الأمر أسماها "نَصِيحَةُ الإِخْوَان بِاجْتِنَاب شُرْبِ الدُّخَان". وشاعت تلك الرسالة وانتشرت بين تجار الدولة السنارية الذين كانوا يزورون إخوانهم من طلبة العلم في الأزهر.

ولما سمع الشيخ «علي الأُجْهُورِي» – الذي كان يدرس الطلبة في الجامع الأزهر، وهو المرجع في فقه المذهب المالكي في زمانه - بأمر تلك الرسالة طلبها للاطلاع عليها. لكنه لما قرأها أنكر ما جاء فيها، وعلى الفور كتب معارضاً فألف رسالة أسماها "غَايَةُ البَيَان بِحِلِّ شُرْبِ مَا لا يُغَيِّبُ العَقْلَ مِنَ الدُّخَان" وجَمَعَ أولئك التجار الذين جاءوا من سنار فخطب فيهم وأفتاهم أن شرب ما لا يغيب منه العقل حلال لذاته، وأن ذلك خفي على بعض الطُّلَّاب فكتبوا رسائل خالفوا فيها قوله ولذا فقد اختار عمل رسالة مشتملة على بيان هذا الأمر .

ولم يكن الشيخ إبراهيم اللَّقَّانِي حاضراً إذ ذاك فلما حضر أخبروه بما دار في مجلس الشيخ «علي الأُجْهُورِي». وكان واضحاً أنه يعنيه حين قال أن ذلك خفي على بعض الطلاب. فالشيخ إبراهيم تلميذ للشيخ «علي الأُجْهُورِي» مثلما هو أيضاً تلميذ للشيخ «إِدْرِيسْ». لكنه كان رجلاً حكيماً لا يحب الجدال ولا المراء، وهو يعلم أن هذا الأمر قد أحدث هرجاً كبيراً بين العلماء، وأن الخلاف قد بلغ منتهاه بين شيوخ الجامع الأزهر الذين أفتوا بإباحته، وشيوخ المسلمين في تركيا ، الذين حرضوا السُّلْطَان «مصطفى» سلطان المسلمين هناك حتى أفتى بحرمته. واحتار التجار بين تضارب الفتيا، هل هو حرام فلا يشترونه ولا يبيعونه أم أنه مباح فتحل تجارته؟ ولما رجعوا من مصر إلى الدولة السنارية أخبروا الشيخ «إِدْرِيسْ» بما دار، فَوَجَّهَ أحد تلامذته وهو الشيخ «حمد ود أبو عقرب» برسالة مكتوبة إلى الشيخ «علي الأُجْهُورِي» متضمنة الفتيا بحرمة تعاطي الدخان ونصحه أن يقابل الشيخ «إبراهيم اللَّقَّانِي» هناك في مصر ليذهبا معاً إلى الشيخ «علي الأُجْهُورِي» فيسلماه الرسالة ويشرحا له الفتيا. وبالفعل ذهبا معاً ودخلا على الشيخ «الأُجْهُورِي» وتحدث الشيخ «حمد» باعتباره حامل الرسالة فقال:

– يسلم عليك سيدنا الشيخ الأرباب «إدريس بن محمد» مفتي الدولة السنارية، وقد بلغه خطابك لمعشر التجار والرسالة التي أفتيت فيها أن تعاطي التبغ و التُنْبَاك حلال، فطلب منا أن نبلغك أن التبغ والتُنْبَاك

حرام، لا يجوز تعاطيه عندنا. وقد أرسل معنا هذه الرسالة مكتوبة بخط يده.

ابتسم الشيخ «علي الأُجْهُورِي» كالمستهزيء بهما ثم أخذ الرسالة وفض ختمها لكنه بعد أن قرأها ألقى بها على الأرض ثم قال للشيخ «حمد»:

– من أين له هذه الفتيا؟ من (رَاسُه والا مِنْ كُرَّاسُه)؟

قال الشيخ «حمد أبوعقرب»:

– الرسول أخبره بهذا.

ضحك الشيخ «علي الأُجْهُورِي» وأشار بأصبعه للشيخ «حمد» وسخر منه سخرية موجعة ثم قال مخاطباً من كان حاضراً في ذلك المجلس:

– اسمعوا يا جَمَاعْة.. هذا الرجل شيخه صحابي!

ضحك الحضور لكن الشيخ «حمد» سكت تأدباً. أما الشيخ «إبراهيم اللَّقَّانِي» فقد تكلم مؤيداً لقول الشيخ «إِدْرِيسْ»، قال:

– الشيخ «إِدْرِيسْ» رجل عالم بلا ريب يا شيخ «علي».

– من أين له العلم يا أبا الإمداد ومن هم شيوخه الذين أخذ منهم العلم ونحن موجودون؟ هل كل من هَبَّ ودَبَّ يفتي برأيه بغير علم؟ ألم تسمع ما قال صاحبه؟ الرسول أخبره بهذا؟

- الشيخ «إِدْرِيسْ» من شيوخ المذهب المالكي في الدولة السنارية يا شيخ علي ومفتيها وأنا قابلته وتتلمذت عليه!

كان الشيخ الأجهوري عازماً على المضي في السخرية من الشيخ «حمد» إلا أن صرامة اللَّقَّانِي في الرد صدمت الشيخ «علي الأُجْهُورِي» فاختفت الابتسامة من شفتيه وهب واقفاً رافعاً صوته:

- ومن الذي خوله الفتيا ونحن شيوخ المذهب في زماننا يا شيخ إبراهيم؟

قال هذا وانصرف غاضباً فدخل خلوته في داره دون أن يكمل الحوار. الشيخ «علي الأُجْهُورِي» هو شيخ المذهب المالكي في مصر وأحد الأئمة الأعلام في زمانه فهو صاحب المؤلفات الحسان والناس يفدون إليه من أقطار الدنيا ليتعلموا العلم. لكنه حين علم بأن هناك من يفتي خلافاً لاجتهاده في هذه المسألة الطارئة في الفقه غضب من هذا الذي يفتي في أقصى بلاد الفُونْج خلاف المذهب، فاستهزأ بتلاميذ الشيخ «إِدْرِيسْ» واحتقرهم ولم يستمع لهم، فهو لم يسمع بهذا الشيخ المدعو «إِدْرِيسْ» من قبل. لكن الشيخ «حمد أبوعقرب» لم يقبل هذا الكلام في شيخه، فعزم على إقامة الحجة عليه على الملأ فحضر وصلى الجمعة في الجامع الأزهر، وكان الشيخ «علي الأُجْهُورِي» هو إمام الناس في الصلاة. فلما قضيت الصلاة قام الشيخ «حمد أبوعقرب» ووقف أمام الشيخ «الأُجْهُورِي» ليجادله

ولما رأى الناس هذا الرجل الأسمر قائماً متحفزاً وقد اتكأ على عصاه في ثقة وتحدٍ أدركوا أن هناك حواراً حاسماً على وشك أن يبدأ فتجمعوا حولهما يستمعون.

قال الشيخ «حمد أبوعقرب»:

– يا شيخ «علي». نحن أهل الدولة السنارية جئناك برسالة من أحد ساداتنا الشيخ «إدريس» الولي الكامل، قطعنا الفيافي والصحارى لنصل إليك هنا في الأزهر في سبيل مصلحة المسلمين ونشر العلم النافع فلم نجد منك الاحترام، بل سخرت منا ومن شيخنا، ولم تستمع لنا ولم تسمع حجتنا بل لم تحترم شيخنا حين ألقيت رسالته على الأرض وفي هذا من التحقير والإهانة ما فيه.

لم يدعه الشيخ «علي» ليكمل كلامه فقاطعه محنقاً غاضباً:

– يا رجل شيخك يفتي بلا علم فيحرم الحلال.

قال الشيخ «حمد أبوعقرب»:

– بل لم تسمع حجته، فشيخنا يقول إن التجار النصارى هم من أدخل التُنْبَاك وأشاعه في بلاد المسلمين لتبديد أموالهم فيما لا يفيد. وفي ذلك ما فيه من الإضرار بصحتهم وتبديد أموالهم. وما ذاك إلا حسداً من عند أنفسهم، بعدما علا شأن الإسلام في هذه البلاد، وانحسر مَدُّ النصرانية فيها، وذلك هو عين السبب الذي جعل سلطانكم سلطان الأتراك يحرم التُنْبَاك ويمنعه في بلاده وفي بلادكم هذه.

– يا رجل شيخك يقول إن تعاطي التبغ والدخان حرام فأين هذا في كتاب الله وأين هو في سنة رسوله والله عز وجل يقول: (وقد فصل لكم ما حرم عليكم).

قال الشيخ «حمد أبوعقرب»:

– يا شيخ «علي» أرد عليك من نصوص فتياك التي أفتيت بها، فأنت تقول بأن شرب ما لا يغيب منه العقل حلال لذاته، وهذه قاعدة جليلة لكن فات عليك أن التبغ مفتر للعقل إن لم يغيبه بالكلية، وتعلم أنه قد اضطربَتْ آرَاءُ الْعلماء فيه بحسب أحواله، مفتراً أو مغيباً، فقال بعضهم بكراهتهِ، وأفتى آخرون بحرمتهِ، وَأَفْرَدُوا له التآليف مثل تلميذك الشيخ «إبراهيم اللَّقَّاني»، وهو من شيوخ المذهب مثلما هو كذلك تلميذ الشيخ «إِدْرِيسْ». بينما قال آخرون بإباحته، وهو مثل قولك أنت يا شيخ. ولهذا فلابد أن لكلٍ حجته ودليله، ولولا ذلك لما اضطربت أحكامهم وفتياهم. لكن لا يخفى عليك أن الله عز وجل قد أرسل نبيه صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، فهل نعتمد على فتياك دون فتيا بقية العلماء والشيوخ، فنقول للناس بأن التبغ حلال على إطلاقه لكونه من الطيبات، وأن الشيخ علي الأجهوري قد أفتي بذلك؟ أم يا ترى هو من الخبائث؟ فإن قلت هو من الطيبات فما الطيب فيه؟ وهو ليس بطعام يؤكل، ولا بشراب يستساغ. وهل نسقيه أطفالنا إن كان من الطيبات؟ فإن كان هذا حاله، وهو قطعاً ليس من الطيبات،

فهل التجارة فيه بالبيع والشراء مباحة؟ أم في النفس منه شيء مثلما جاءك التجار يستفتون من قبل؟

- أخبرني أنت يا رجل بحجة شيخك في تحريم التعاطي فقد أفتيتكم في رسالتي التي بين يديك وأعلم أنها قد وصلت عند شيخك.

- أخبرناك أن شيخنا «إِدْرِيسْ» يفتي بمنع بَيْعِ الدُّخَانِ وَشُرْبِهِ، وَيفتي أن شاربَهُ فِي الصَّوْمِ لَا شَكَّ يُفْطِرُ.

- وما حجته في هذا؟

هنا تكلم الشيخ «إبراهيم اللَّقَّاني» فقال:

- قياساً على ما نقله الشَّيْخ إِسْمَاعِيلَ النَّابْلُسيِّ عَلَى شَرْح الدُّرَر بَعْدَما ذكر أَنَّ لِلزَّوْجِ مَنْعَ الزَّوْجَةِ مِنْ أَكْلِ الثُّومِ وَالْبَصَلِ وَكُلِّ مَا يُنْتِنُ الْفَمَ قَالَ: وَمُقْتَضَاهُ الْمَنْعُ مِنْ شُرْبِهَا التُّتن لِأَنَّهُ يُنْتِنُ الْفَمَ خُصُوصًا إِذَا كَانَ الزَّوْجُ لَا يَشْرَبُهُ أَعَاذَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْهُ. لكنك ياشيخ قد ألفت رِسَالَةً فِي حِلِّهِ نَقَلَت فِيهَا أَنَّهُ أَفْتَى بِحِلِّهِ مَنْ يُعْتَمَدُ عليه مِنْ أَئِمَّةِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ. فمن هم هؤلاء الذين يعتمد عليهم وعلام استندوا؟

قال الشيخ «علي الأجهوري»:

- الْحُرْمَة أَوْ الْكَرَاهَة حُكْمَان شَرْعِيَّانِ لَا بُدَّ لَهُمَا مِنْ دَلِيلٍ وَلَا دَلِيلَ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ إِسْكَارُهُ وَلَا تَفْتِيرُهُ وَلَا إِضْرَارُهُ، بَلْ ثَبَتَ لَهُ مَنَافِعُ، فَهُوَ دَاخِلٌ تَحْتَ قَاعِدَةِ الْأَصْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الْإِبَاحَةُ وَأَنَّ فَرْضَ إِضْرَارِهِ لِلْبَعْضِ

لَا يَلْزَمُ مِنْهُ تَحْرِيمُهُ عَلَى كُلِّ أَحَد، فَإِنَّ الْعَسَلَ يَضُرُّ بِأَصْحَابِ الصَّفْرَاءِ الْغَالِبَةِ وَرُبَّمَا أَمْرَضَهُمْ مَعَ أَنَّهُ شِفَاءٌ بِالنَّصِّ الْقَطْعِيِّ، وَلَيْسَ الاحْتِيَاطُ فِي الافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِثْبَاتِ الْحُرْمَةِ أَوْ الْكَرَاهَةِ اللَّذَيْنِ لَا بُدَّ لَهُمَا مِنْ دَلِيلٍ، بَلْ فِي الْقَوْلِ بِالْإِبَاحَةِ الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ، وَقَدْ تَوَقَّفَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ - مَعَ أَنَّهُ هُوَ الْمُشَرِّعُ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ أُمِّ الْخَبَائِثِ حَتَّى نَزَلَ عليه النَّصُّ الْقَطْعِيُّ، فَالَّذِي يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ إذَا سُئِلَ عَنْهُ سَوَاءً كَانَ مِمَّنْ يَتَعَاطَاهُ أَوْ لَا أَنْ يَقُولَ هُوَ مُبَاحٌ، لَكِنَّ رَائِحَتَهُ تَسْتَكْرِهُهَا الطِّبَاعُ؛ فَهُوَ مَكْرُوهٌ طَبْعًا لَا شَرْعًا وإن أفتى شيخك أو جزم بِالْحُرْمَةِ، فهي ليست حرمة لِذَاتِهِ بَلْ لِوُرُودِ النَّهْيِ السُّلْطَانِيِّ عَنْ اسْتِعْمَالِهِ".

- ها أنت تناقض قولك يا شيخ «علي» فبعدما أفتيت بالحل إذا بك الآن تقول بالكراهة وبأنه قد يضر البعض، وأما النهي السُّلْطَاني فهو لا يلزم أهل الدولة السنارية لكونهم لا يتبعون لسلطان التُّرك لكنه يلزمكم أنتم يا أهل مصر، فسلطانكم العثماني ليس هو سلطان السلطنة السنارية. ولذا فهم يتبعون قول الشيخ «إِدْرِيسْ» مفتي السلطنة السنارية فهو من أفتى بالحرمة والمنع عندهم!

- أنا لم أنفرد بالإباحة وحدي، فممن ذهب إلى إباحته كذلك «الدسوقي» و..

- «الدسوقي» لم يشهد عهدنا هذا عهد التبغ والدخان يا شيخ علي! ولو شهده لما أحله. بل إنه قد ذهب إلى القول بكراهة شرب الدخان

من الشَافِعِيّة «بن حاجي الشرواني ثم القسطنطيني»، واستدل على ذلك بقياسه على البصل بجامع خبث الرائحة، وخروجاً من الخلاف. وحتى تلاميذك في المذهب المالكي يا شيخ علي مثل «سالم السَّنْهُورِي» و«مُحَمَّد بن عَبْد الكريم الفكون»، يقولون بتحريمه، وهم موجودون معك وبين يديك الآن و«الفكون» ألف في ذلك رسالة "محدد السنان في نحور إخوان الدخان" وأنا محدثك «إبراهيم اللَّقَّانِي» أقول بذلك ولي فيه رسالة وهذا تلميذكم «أَحْمَد البهوتي»، وهو حنبلي يقول بتحريمه.

– ما دمت تقول إنهم تلاميذي وهم حقاً كذلك فما هو دليلك ودليلهم على التحريم يا «لقاني»؟

– سأقول إنابة عنهم وهم بيننا يسمعون كلامي الآن فإن أخطأت في النقل فليصوبوني. هم استدلوا على التحريم بأنه قد يغيب العقل في بداية شربه، وإن لم يغيب العقل فإنه يفتر، وكلاهما محرم شرعاً، وأنه وإن لم يكن مغيباً للعقل أو مفتراً لبعض الأفراد فإنه ضار للبدن والعقل والمال، وقد نُهينا عن الإضرار بكل ذلك، مع ما فيه من التبذير الممنوع شرعاً، وغير ذلك. وأما اجتناب الضرر فهو أمر مجمع على وجوبه، ولا يجوز لأحد مخالفة الإِجْمَاع الصحيح. والله أعلم.

لم يقبل الشيخ «علي الأُجْهُورِي» ذلك الحوار كله جملة وتفصيلاً، خاصة حينما ذكر أن جملة من تلاميذه خالفوه في الفتيا فغضب جداً

وولى ظهره للشيخين «حمد أبوعقرب» و«إبراهيم اللَّقَّاني»، وهذا يعتبر غاية الإساءة لهما. وفي حين سكت الشيخ «إبراهيم اللَّقَّانَي» لكونه تلميذ الشيخ «علي الأُجْهُورِي» إلا أن الشيخ «حمد أبوعقرب» لَم يقبل ذلك ولم يحتمل الإساءة فوقف وقال:

– نحن جادلناك بالحسنى وبالحجة فلم تقبلها وأسأت إلينا ولم تحترم وفادتنا إليك، بل أهنتنا بأن وليتنا ظهرك ولما ننصرف عنك وعن مجلسك، فلم يعد بيننا إلا المباهلة والله عز وجل يقول: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) وإني أسألك يا الله أنه من أبصر الحق فلم يتبعه واتبع الباطل فليذهب بَصَرُهُ قبل حلول الجمعة القادمة. آمين!

فلما قال هذا اشتاط الشيخ «علي الأُجْهُورِي» غضباً من الدعوة للمباهلة، فأخذ يُجَهِّلُ الشيخ «حمد أبوعقرب» ويقول:

– كيف تباهلُنِي يا جاهل وأنا مسلم؟ وإنما أنزلت الآية لمباهلة النصارى! وهل أنت ولي من أولياء الله الصالحين الذين إذا دعوا أجيبوا وإذا سألوا أعطوا؟

ثم قام كالمستهزيء بهما ونزل من المنبر مغادراً الجامع الأزهر.

أخبرني تجار الدولة السنارية القادمون من مصر أنه بعد يوم واحد من ذلك الحوار بينما كان الشيخ «علي الأُجْهُورِي» في مجلسه قام أحد

الطلبة فاستفتى الشيخ في مسألة وهي أنه تزوج وَوَقعت بَينه وَبَين زَوجته مشاجرة فَطلقهَا ثَلَاثًا ثمَّ أراد أن يردها فأفتاه بِأَنَّهَا لَا تحل لَهُ إلا بعد زوج آخر، فتوعده بأنه سيقْتله إن لم يُفْتِهِ بِرَدِّهَا، فَلم يكترث الشيخ «علي الأُجْهُورِي» بكَلَامِهِ فَتركه يَوْمًا حَتَّى جلس للتدريس على عَادَته فجَاء وقد خبأ سيفاً تَحْت ثيابه فاستله وَضرب «الأُجْهُورِيَّ» على رَأسه، فَقَامَ عليه أهل الْحلقَة وَمن حضرهم من أهل الْجَامِع فتناولوه يَمِينا وَشمَالًا بالنعال والحصر حَتَّى حالوا بَينه وَبَين «الأُجْهُورِيَّ» وَقد شجه في رَأسه وَمَا زَالُوا بِهِ حَتَّى قَتَلُوهُ دوساً بالأرجل وَضرباً بالأيدي وَالنعال والعصي. وَرُفع «الأُجْهُورِيَّ» إلى دَاره فأَثَّرت تِلْكَ الشَّجَّة في بَصَره حتى عمي. فتذكر مباهلة الشيخ «حمد» وأنه دعا بذهاب بصره قبل الجمعة القادمة، فأمر من حوله أن يحضروا الشيخ «حمد» ليستسمحه، لكن التلاميذ أخبروه أن الشيخ «حمد» عاد إلى بلاده غاضباً ولم يبق في القاهرة. فقال لهم ابحثوا عن الشيخ «إبراهيم اللَّقَّاني» فلما أحضروه قال له يا شيخ «إبراهيم» أريدك أن تشهد وتعلن على الناس في الملأ صحة فتيا شيخك «إدريس بن محمد الأرباب السناري»، وأني أخطأت في حقه حين استهزأت به. وأني الآن قد رجعت عن الفتيا. وقد أمرت بإصدار فتيا من الأزهر بحرمة التنباك. وأريدك أن تحمل هدية مني إلى الدولة السنارية فتسلمها للشيخ «إِدْرِيسْ» وتعتذر له، وتعتذر كذلك للشيخ «حمد» الذي كان يناظرني فقد أَخطأت في حقه.

وحمل الشيخ «إبراهيم اللَّقَّانِي» تلك الهدية (الأجهورية) ومعها منحوتة نحاسية تحمل الاعتراف بعِلْم الشيخ «إِدْرِيسْ».

كانت هذه رواية الشيخ «حمد أبوعقرب»، فهو الذي حدثني بكل هذا. وبالفعل حين زرت الشيخ «إِدْرِيسْ» آخر مرة رأيت تلك الهدية الأجهورية خلف ظهره وقد علقت فوق حامل الراية الخضراء المكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

***

الأميرة بياكي

سوف أحكي لكم كيف تطورت الأمور معي بطريقة غير متخيلة. فقد حكيت لكم قبل هذا كيف جئت إلى هذه البلاد، وكيف خالطت أهلها، وتعلمت فيها ومنها الكثير. كانت حياتي حتى هذه اللحظة تمضي هادئة مسطحة لا شية فيها. حتى قابلت الأميرة «بياكي» زوجة السُّلْطَان «عِمَارَة ولد عدلان» في مسيد الشيخ «إِدْرِيسْ» في ذلك اليوم. بعدها انقلبت حياتي رأساً على عقب. وإن شئت فقل بدأت أحس للحياة طعماً ومعنى. فلا معنى للحياة دون تحدٍ ومواجهات.

ما رأيته بعد ذلك لا يمكن وصفه بالكلمات. لا يمكنك أن تتخيل عن أي شيء أتحدث، أو أي مغامرة أدخلت نفسي فيها، فقط لمجرد أنني تمكنت من كتابة بعض السطور هنا. هي بالنسبة لك مجرد عبارات للمتعة، ستقرأها وتنساها ربما بعد يوم أو يومين. أو تملها، فلا تكمل الاستماع لحكايتي إن شعرت أنها غير مهمة بالنسبة لك، أو أنها جاءت دون توقعاتك. وربما تعجبك قليلاً فتحكي عنها لبعض أصدقائك. وبعد قليل ستصبح بالنسبة لك بعض ذكريات خافتة، لا تذكر الكثير من تفاصيلها، لكنها بالنسبة لي هي كل شيء.

كل دفقة من دفقات المشاعر، أو لحظة من الترقب والخوف والتحدي والجسارة. المغامرة التي عشتها لا يمكن أن تتكرر في حياة الناس. أما أنا

فلن أتمكن من نقلها إليك كما حدثت، مهما أوتيت من بلاغة التعبير ودقة الوصف. وأنت كذلك لا يمكنك تخيلها. أجل لا يمكنك ذلك، حتى لو عشت في جلبابي وتقمصت روحي. لا يمكنك لو عشت ألف عام، أن تعرف حقيقة يوم من أيام حياتي التي عشتها هنا في سِنَّارْ، بعد ذلك التاريخ الذي قابلت فيه الأميرة «بياكي». أنا بالطبع قد حكيت لك عن حياتي في هذه البلاد، لدرجة أنك - فيما أظن - قد بدأت تتخيل نفسك مثلي، يتيماً مغربياً عاش بين مشرقيين في بيئة لم يألفها من قبل، فوجد كل شيء مختلفاً وغريباً عنه: الطعام والشراب، والزي والأجناس، واللهجة والعادات والتقاليد، وطرائق العيش وأخلاق الناس.

لكن ما سوف أقصه عليك الآن هو شيء مختلف. فهو متعلق بأعماق النفس الإنسانية، شيء متعلق ببشريتك حين ترى الظلم أمامك، وأنك تقدر على تغييره. وحتى لو دفعت الثمن باهظاً، أو ضحيت بحياتك فغير مهم. ها أنت الآن قد بدأت تقترب من فهم ما سأقصه عليك. في ذلك المجلس الذي جمعني بالأميرة «بياكي» قرأت الحزن في عيني الشيخ «إِدْرِيسْ»، وهو يحدثني بألم عن الظلم الواقع على الناس، وأنه لا يستطيع رفعه عنهم. لكن كلام الأميرة «بياكي» عن ولدها، وعجزها عن فعل شيء، أي شيء، لتنقذه من القتل، هو الذي طعنني في القلب، بنصل حاد من الإحساس بالضيم والقهر. وحين قالت إن الأم مستعدة لأن تموت ألف مرة من أجل ولدها، أيقظ ذلك الكلام ذكريات دفينة، كنت أظن أنني قد طمرتها في أعماق ذاكرتي طوال هذه السنين، وأنها أصبحت

بالنسبة لي في حكم النسيان. أحيتها هذه الأميرة المظلومة، وكأني قد عشت لحظاتها في ذلك المسيد قبل قليل، وليس منذ ما يقرب من الثلاثين عاماً. في تلك اللحظات أحسست أني ولدها هي. وأن ذلك الابن الأسير في (قصر السوكرة)، هو أنا «عَبْد السَّمِيع» الطفل الصغير المتشرد، الهائم في طرقات المغرب العربي.

لم أحس قبل ذلك بمثل هذه المشاعر، فأنا قد كبرت بعيداً عن أمي. لم أنشأ في أحضانها مثل بقية الأطفال. ماتت أمي في الوباء، ولم يطل بها العمر لتتمكن من منحي هذه المشاعر الدفاقة. ما زلت أذكر رؤية الدموع في عينيها، وهي تجتهد لتخفيها عني، وتغالب مشاعرها وضعفها، قبل أن تضعني أمام باب أحد المساجد، ثم تتسلل لتختفي عن نظري. كنت أظن أن تلك الرعشة في يديها هي من جراء البرد، فقد كان قارساً تلك الليلة. ولم أكن أعلم أن تلك هي ارتجافة قلب الأم، وهي تترك صغيرها للمجهول. كنت صغيراً، لكني كنت أعقل ما تفعله بي. أحسست به وبها. كانت تتمزق في داخلها، وهي تعلم أنها سوف تتركني إلى الأبد. كانت تموت حين تركتني. في واقع الأمر هي ماتت في دواخلها ألف مرة، قبل أن تتركني. لم تسمح لي بلمسها، خوفاً أن تصيبني العدوى. لم تُقَبِّلْنِي على خدي قبلة الأم لولدها. لم تضمني إلى صدرها بحنان، ضمة الوداع. فخوفها على ولدها جعلها تقاتل لتتغلب على كل هذه المشاعر، مشاعر الأم. ولهذا فقد قررت بيني وبين نفسي أن أفعل كل ما بوسعي لأرى الأميرة «بياكي» وهي تحتضن ابنها، وتمنحه تلك المشاعر، فكأنها حين

تفعل ذلك تحيي أمي، فتعوضها عما حرمت نفسها منه، يوم تركتني أمام باب المسجد، في ذلك اليوم الشتائي البارد. وكأنها بذلك تعيد لي ما سلب من طفولتي، تعوضه في ابنها الأمير الأسير «أونسة». بعد أن تعيد لي أمي.

أمي وأبي. لم أنادهما كثيراً في حياتي، ولم أمتع فمي ولساني وقلبي بذلك النداء، لسبب ولغير ما سبب حين أردده. أمي. أبي. أمي. أذكر ذلك اليوم الذي ذهبا فيه. أذكر أنني انتظرتهما كثيراً. عند باب المسجد. جاء المصلون، فصلوا الفجر وتفرقوا، وبقيت منتظراً عودتهما. لم آكل شيئاً ولم أشرب، حتى أذن المؤذن لصلاة الظهر، وجاء الناس فصلوا وانصرفوا. كانوا يرمقونني بأطراف أعينهم، ويتحاشون الاقتراب مني أو لمسي. كانوا يظنون أني أنا المصاب بذلك الوباء الخبيث، وأن أمي وأبي تركاني لأني مصاب وليس هما. ولهذا فلم يقترب مني أحد من المصلين، وتركوني وحدي لأموت. فمن يصاب بهذا الوباء لابد أنه سيموت عاجلاً، وليس له دواء ولا علاج معلوم. وكنت أنظر إليهم متسائلاً أين أمي، أين أبي، ومتى سيأتيان؟ لكني لم أجرؤ على الكلام. فبقيت صامتاً مطبقاً فمي. لكني كنت أصرخ في دواخلي بأقوى ما أوتيت من مشاعر الاحتجاج. وحبست الدمعة في عيني لأحبس الأمل بداخلي. فلا بد أنهما سيأتيان، لا بد أن يأتيا. محال أن تتخلى أمي عني بهذه السهولة. محال، محال. وحين أظلم الليل ولم يأت أحد ظننت أنهما هناك يبحثان عن لقمة خبز ليطعماني، لكني لا أريد الطعام. نَعَمْ. الجوع يعضني في كبدي، لكني أريد أمي. فقط أريد أمي.

بِتُّ تلك الليلة ساهراً عند باب المسجد. وعندما أذن الفجر ذهبت أبحث عنها. وهناك غير بعيد رأيت ثوباً يشبه ثوب أمي، فاقتربت قليلاً. كانت هي أمي بالفعل، وكانت نائمة. لكنها لا تتنفس. ناديتها فلم تستيقظ، ولم تستجب لندائي مثلما كانت تفعل كل يوم بمجرد أن أنادي يا أمي، وحينها كانت تستيقظ من نومها لتتفقدني، مهما كان نومها عميقاً. كررت النداءات. ولكن أمي لم ترفع رأسها، ولم تفتح عينيها هذه المرة. بقيت أحرسها حتى طلعت شمس اليوم التالي، لكنها لم تتحرك من جراء حرارة الشمس. ثم رأيت رجلاً يمشي في الطريق ومعه أطفاله. وحين مروا بجوارنا نظروا إلينا بعيون قرأت فيها الأسى. ثم سمعت أحدهم يقول:

– مسكين هَالصِّغَيُّورْ. تَيَتَّمْ وهو صغير. الله يِتْحَنَّنْ عليه ويرحمها أمه يا رب.

لكن الرجل زجر أطفاله جَزِعَاً حين أرادوا الاقتراب مني، وحذرهم من الوباء الفتاك، ثم أمسك بأيديهم وأسرع بهم يحثون الخطى، حتى غابوا عن عيني. كانوا يلتفتون ناحيتي كلما مشوا خطوات، وأيديهم في يد أبيهم. عرفت أن أمي ماتت. ورغم ذلك حاولت أن أسحبها من يدها، لعلها تفيق لتبحث معي عن أبي. لكنها لم تفعل. قلت لها يا أمي سوف أذهب لأبحث عن أبي، وسأطلب منه أن يساعدك. سوف أعود بسرعة. لا تذهبي لأي مكان.

تركتها وركضت بأقصى ما تحملني قدماي. ركضت نحو المسجد، ثم عدت إليها. وكانت تنتظرني في نفس موضعها. فتحت لها عينيها ولكنها لم تنظر ناحيتي. كلمتها فلم ترد على. أخذت أجري مرة أخرى في الاتجاه الآخر. كنت جائعاً فخارت قواي. وعند مزبلة في الطريق سقطتُ على وجهي من الجوع والتعب. وعندما أفقت قليلاً وجدت بقايا طعام متعفن في تلك المزبلة، فأكلت منه لقمة. لكني تقيأتها، فرائحتها لا تطاق. ثم تذكرت أمي، فقمت أجري لأبحث عن أبي عله يساعدها. وفي آخر الطريق وجدته.

كان هناك نائماً مثل أمي، وبجواره ناس آخرون نائمين، لكن رائحتهم كريهة. وبعضهم بطنه منتفخ جداً. كلمت أبي فلم يرد، وناديته فلم يصحُ من نومته. وضعت يدي في يده مثلما صنع أولئك الأطفال الذين مروا بي في هذا الصباح، عندما وضعوا أيديهم في يد أبيهم وهم ينصرفون. لكن يد أبي لم تضم يدي، ولم تمسك بها مثلما فعلت يد ذلك الرجل الذي مر بجوارنا. يد أبي كانت باردة. شددتها فلم يقم معي. وناديته فلم يرد عليَّ. توسلت إليه أن يقوم، فلم يفعل. غضبت منه. فقد كنت أريده أن يساعد أمي.

تركته ورجعت إلى موضع أمي مرة أخرى، لكن لم أجدها حيث تركتها. وكان هناك رجل يقود عربة تجرها بغال، وكانت مليئة بالناس النائمين. مثل أمي، وكانت أمي معهم. عرفتها من ثوبها. أخذها الرجل

وذهب بها، ولم أتمكن من الركض خلفه، لأني ركضت كثيراً حتى أوجعني صدري من اللهث. وحين اقتربت من تلك العربة جلدني الرجل بالسوط الذي كان يسوق به البغل، وزجرني وأمرني أن أبتعد. لكنني لم أتوقف، وصحت فيه: أمي. أريد أمي. خذني معك. أريد أن أذهب معها. ولكنه كان يصيح بأعلى صوت، ويأمرني بالابتعاد عن العربة. ولما لم أفعل جلدني مرة أخرى، وثانية، وثالثة، حتى قعت على وجهي. ولما نهضت كانت العربة قد ابتعدت كثيراً، فوقفت أنظر إليها وهي تبتعد شيئاً فشيئاً، حتى غابت عن ناظري. كانت هذه آخر مرة أرى فيها أمي محشورة وسط النائمين، في عربة يجرها بغل، ويمضي بها خارج المدينة.

وحين رجعت أبحث عن أبي كان ما يزال هناك، ولكن كانت بطنه مفتوحة. وكان هناك كلب ضخم، يأكل من بطن أبي. حاولت أن أطرد الكلب وأبعده عن أبي. فاقتربت منه وصِحْتُ فيه ليبتعد عنه ويتركه، لكن الكلب كشر عن أنيابه وزمجر، والدم يسيل من فمه ولسانه، ولم يترك أبي، فخفت وهربت. ثم سرت في الطريق، وأنا أقول لنفسي إن أبي كبير وقوي، وسوف يضرب ذلك الكلب، ويأتي ليرجع لي أمي. لكن أبي لم يأت، وأمي ذهبت. وبقيت وحدي أمام باب ذلك المسجد.

حين كبرت قليلاً وبدأت استعيد تلك الذكريات، عرفت الذي جرى لأمي وأبي. لكنني قررت أن أنسى هذا كله. تظاهرت بأن الشجرة التي كنت أنام تحتها كل ليلة هي أمي. لكنني حدثت الشجرة كثيراً ولم ترد

عليَّ كما كانت أمي تفعل. ثم سمعت صوت قمرية فوق غصن الشجرة، وكانت تنوح بصوت حزين، فقلت هذه هي أمي، ولما بدأت أحدثها طارت ولم ترجع.

كنت أذهب فأجلس أمام باب المسجد. ولما رأيت المؤذن ينادي للصلاة، ثم يصلي بالناس، تخيلت أني ابن إمام المسجد. كنت أراه يأتي كل يوم لابساً ثيابه البيضاء ليؤذن للصلاة، فيرفع صوته عالياً، ثم يصلي بالناس إماماً. كان صوته مليئاً بالحزن، فأحببته. لكن في يوم قرأ: (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ) فعلمت أنه يقصدني أنا، لأني فررت وتركت أمي وأبي. بكيت كثيراً ثم عزمت ألا أعود لهذا المسجد. وقررت في نفسي أن هذا المؤذن الإمام ليس أبي بعد اليوم، لأنه أحزنني وأبكاني، وقال إني فررت في ذلك اليوم من أمي وأبي.

هل آذتك حكايتي؟ أنت سمعتها مني مرة واحدة فقط لكني عشتها كل لحظة من لحظات عمري. كنت أكتمها في قلبي والآن فجرتها حكاية الأميرة «بياكي» فأيقظت في نفسي مارداً جباراً. فإليك بقية الحكاية:

خرجت من مسيد الشيخ «إِدْرِيسْ» وقد عزمت أن أفعل شيئاً واحداً فقط، أن أعيد لهذه المرأة ولدها الأمير حياً. لم أخبر الشيخ «إِدْرِيسْ» ولا الأميرة «بياكي» ولم أخبر أحداً بوجهتي، ولا ما أنوي فعله. حزمت أمري ومتاعي، وغادرت دون أن أودع «صُلَيْحَة». لأني لو ذهبت لتوديعها فهي لا بد ستعرف كل شيء حالما تنظر في عيني. كانت ستقرأ

كل ما يدور بخاطري فهي «صُلَيْحَة» وأنا أعرفها جيداً. ولهذا فقد هربت من وداعها، ولكني أرسلت لها خادمة لتخبرها أني اضطررت للذهاب مع بقية موكب السُّلْطَان، فقد رحل الموكب فجأة ولم يكن متيسراً أن أتخلف عنهم لأودعها. كان ذلك صحيحاً، فلم أكذب، لكنها بلا أدنى شك ستعلم أن في الأمر شيئاً. ولما وصلتُ سِنَّارْ بدأت فكتبت وصيتي «لصُلَيْحَة»، ثم خبأتها في (السحارة) بين ثيابي في ذلك الكوخ.

اعتذرت لها عن إقدامي على هذا الفعل، وقلت لها إنها سوف تعذرني حين تعلم أنني أموت مرتاح الضمير، بعد أن ظللت أتعذب على تفريطي في أمي وأبي، حين كنت صغيراً. وأنني الآن بفعلتي هذه أكفر عما ارتكبته في حقها. قلت لها إن جدها الحاج رجل حكيم، ولابد أنه سوف يجد لها زوجاً بعدي، وأن عليها ألا تحزن على موتي، وأن تمضي في حياتها، فهي امرأة مقاتلة، شديدة العزم، جميلة الصبر. قلت لها إنني أحبها كأشد ما يكون حب الرجال للنساء، وفوق ذلك فإن الذي بيني وبينها هو لقاء أرواح قبل أن يكون لقاء قلوب، وأني بحثت عنها لأتزوجها قبل أراها، وذلك بعد أن سمعت حكايتها من جدها. وقد عشت معها أياماً لا تنسى. وقلت لها إن لم نلتق في هذه الحياة، فمؤكد أننا سنلتقي في حياة أخرى دائمة، لا تنقضي ولا تنقطع، ولا شيء يفرقنا!

كتبت الوصية متجالداً، ثم إني بعدما فرغت من كتابة الوصية عدت إلى ضعفي وأشجاني وشوقي، فبكيت عليها كما تبكي النساء. بكيت لأني أعلم

أنها امرأة لا تستحق مني هذا، وأني بعدم مشاورتها في مصيري قد ظلمتها، فقد ارتبطت مصائرنا برباط وثيق. لكني عدت لواقعي، وقلت لنفسي إن هذه سنة الحياة، وإني أقدم نفسي فداء لما آمنت به. كان أكثر الأشياء صعوبة هو التفكير في مفارقة «صُلَيْحَة». وبالرغم من ذلك عزمت على مفارقتها. وكنت أعلم أن هذا العمل الذي أنا مقدم عليه سوف يعرضني للموت بلا أدنى شك. لكني مع ذلك مضيت فيه دون تردد.

انتهزت فرصة انتقال الحكم من السُّلْطَان «عِمَارَة» إلى السُّلْطَان «عَبْد القادر» لتنفيذ مهمتي. فالسُّلْطَان «عِمَارَة» كان قد كلفني في السابق بتعليم أبنائه وأبناء الحكام المحبوسين في (قصر السُّوكَرَة) القراءة والكتابة! ولم أقم بهذا العمل على الفور إذ ذاك، نظراً لانشغالي بما حدثتكم عنه. لكني في هذه المرة قدمته على غيره من الأعمال، فهو وسيلة للوصول إلى الأمير «أونسة الثاني» ابن الأميرة «بياكي».

كنت أعلم أني أسابق الزمن قبل أن يصدر السُّلْطَان الجديد أمره بقتل إخوته الذين في السوكرة. توجهت على الفور إلى (مُقَدَّم السَّوَاكْرَة) وأبلغته بأني قادم لتعليم الأبناء القراءة والكتابة. فأصدر أوامره لأحد المقاديم، الذي جاء واصطحبني إلى القصر. وعند وصولنا لم ننتظر كثيراً عند البوابة فسمحوا لي بالدخول.

فوجئت أنه لا توجد حراسات كالتي يشاع عنها خارج القصر. توقعت أن أجد أمراء خائفين من مصيرهم، وقد أنهكهم الترقب، وأَنْحَلَ

أجسادهم القلق، وأكلهم الخوف، وكل ما يهمهم هو الهرب والفرار من هذا السجن. لكنني لم أر أياً من هذا. بل وعلى النقيض رأيت فيهم عزماً ومضاء، وتدريبات عسكرية، وحركة دؤوبة داخل القصر، لا تنقطع ولا تتوقف. رأيت شباباً مطمئنين يتعلمون القرآن ويدرسونه. ورأيت منهم جميعاً إقبالاً على الحياة. ودهشت لما رأيت حتى إني ظننت أني دخلت قصراً آخر، وليس (قصر السُّوكَرَة).

حاولت التعرف على الأمير لأعقد معه صداقة، ولم يطل انتظاري فسرعان ما جاء بنفسه ليتعرف إلي قبل أن أدعوه. كان شاباً في مقتبل العمر، وقد تجاوز العشرين، وقد طَرَّ شاربه ونبتت لحيته. وكان وسيماً جميل المحيا، وعلامات الرضى على وجهه ظاهرة.

حين جاء حياني فصافحني وجلس. وسألته فتأكدت أنه ابن الأميرة «بياكي» الأونسابية بالفعل. غالبت الدمعة حتى لا تفضحني. سألته عن حاله فحمد الله. حاولت التلميح له بما ينتظره فلم يبد عليه الخوف ولا القلق، بل كان مطمئناً. قلت له مشفقاً:

– بالطبع أنت تعلم مصير الأمراء أبناء السلاطين الذين لا يقع عليهم الاختيار لتولي الحكم.

قال لي:

– عرفت هذا منذ سنوات طويلة، فقد أخبرونا به منذ أن عقلنا.

– كم أمضيت في هذا المكان؟

– أمضيت عمري كله تقريباً.

– ماذا تفعلون هنا غير التدريبات العسكرية؟

– هذه حياتنا. نفعل كل شيء. نتعلم الفروسية والقتال. ونحفظ القرآن، ونتعلم أمور الحكم، وشئون سياسة الرعية، ونذهب في رحلات الصيد، والكثير الكثير.

– لكن مصيركم غير معلوم!

– بصراحة لا يهمني. وهذه عاداتنا وتقاليدنا.

– ولكن أنت أسير هنا. وبعد كل هذه السنوات من الأسر من المحتمل جداً أن ينتهي بك الأمر مقتولاً. بل وفي أي لحظة الآن. أي عادات وتقاليد هذه؟ من أين جاء قومكم بهذه العادات الغريبة؟

– نحن أحسن حالاً من بقية الممالك حولنا يا مغربي. ففي مملكة أكسوم مثلاً يعزلون الأمراء المرشحين لاعتلاء العرش في مكان بعيد، ومحصن تحصيناً كاملاً في أعالي الجبال، وتحت حراسة مشددة، ممن يثق فيهم الملك ثقة كاملة. وعند وفاة الملك أو الرغبة في استقدام أحدهم يحضر الأمير المطلوب، ويقتلون البقية على الفور. ولهذا فنحن هنا في أفضل حال، فلا يحجزوننا في الجبال، وإنما يعزلوننا في هذا القصر كما ترى، ولسنا وحدنا، بل معنا أبناء حكام الولايات الذين سيرثون حكم ولايات آبائهم. ونعيش حياتنا المكتوبة لنا بصورة طبيعية.

– وما ذنب بقية الأمراء الآخرين، أبناء شيوخ وحكام الأقاليم؟

– بل وما ذنبنا نحن كذلك؟ بمنطقك هذا! ولكن الجواب هو أنهم رهائن ملكيون يتم استخدامهم وقت الحاجة في الصراع مع البلاطات الإقليمية. ووضع الابن كرهينة يضمن السلوك الحسن لوالده صوب مصالح السُّلْطَان. وعموماً فالسوكرة ليست سيئة فكما ترى نحن نتلقى التعليم والتدريب على القتال خلال إقامتنا، فهي فترة إعداد لتولي الحكم والمسئولية، وإن متنا أو قتلنا فهذا فداء للملك وللدولة. ومقدم السواكرة كما ترى يعاملنا معاملة حسنة. ونحن هنا جميعنا إخوة!

– لكن يا مسكين بعد تولية الملك الجديد يتم قتل جميع إخوته، وأنت أولهم! فوجودك هنا هو بمثابة وجود الأغنام في الزريبة - وسامحني للتشبيه - يتم حجزها وعلفها لتسمن، قبل أن يقوموا بذبحها في نهاية الأمر.

– وماذا تريدني أن أفعل حيال هذا؟ غريب أمرك يا مغربي!

– تهرب مثلاً. إلى مكان.

قاطعني بنبرة حادة:

– قل لي بالله عليك ما فائدة الهرب؟ لأني إذا هربت فسيقوم أخي الملك المنتخب بمطاردتي فيقتلني، أو أقتله. وبصراحة إذا لم يكن من القتل بد فأفضل أن أكون المقتول ولا أقتل أخي. هل نسيت يامغربي حكاية قابيل وهابيل؟ فهي مذكورة في القرآن!

– تستطيع أن تهرب إلى مكان لا تطالك فيه يد أخيك، وبهذا فلن تضطر لأن تقتل أحداً، ولا توقع أخاك في الإثم بسفك دمك.

– لن أهرب إلى أي مكان، ولن أجلب العار لقومي، ولن أعيش عالة على أحد أو لاجئاً عند أعداء السلطنة.

– لم أكن أعلم أنك بهذا العناد. وعموماً فكر في أمك التي سيفجعها قتلك.

– القتل والقتال هو شيمة الرجال الفرسان وأبناء الملوك. نحن تربينا على هذا، ونشأنا وهو يجري مع دمائنا في العروق. دعك من العواطف يا مغربي. أمي ستفرح بي قليلاً لو خرجتُ، لكنها ستحمل عار هروبي مدى العمر. أما إذا قتلوني هنا في السوكرة، فربما تحزن قليلاً، لكنها ستبقى مدى العمر تفخر بِجَلَدِي، وأنني لم أهرب كما يهرب الجبناء، أو أخشى القتل متى جاء.

أخرسني منطقه وقوة حجته. لم أكن أتوقع هذا فبقيت صامتاً وانصرفت خجلاً. ثم تكرر هذا الحوار بيني وبينه عدة مرات، وبصيغ مختلفة، وتكررت ردوده بأقوى العبارات في كل مرة. لكنه من بعدها بدأ يتجنبني فلا يجالسني. وأخذ يراقبني من بعيد، فأيقن أني لا أتحدث مع أحد آخر غيره. ولولا ذلك لأبلغ عني مقدم السواكرة، فأمسكوا بي على الفور. ورغم هذا فقد بقيت منتظراً ولم أيأس من اقتناعه بالهرب معي!

وفي مرة جاء فجلس بجواري لكنه بقي صامتاً ولم يتحدث، فبعث في نفسي الأمل بأنه قد يقرر الهرب معي. كان حزيناً على غير عادته وحينما تكلم قال لي:

– أنا أعلم أنك جئت إلى هنا بتحريض من أمي. لأنها لم تيأس من عودتي إليها. وبصراحة كانت تأمل أن تتم توليتي أمور السلطنة، فأنا

من نسل (بيت الشمس) كما تعلم، فأنا «أونسة الثاني» وجدي – خال أبي – هو المقدوم «أونسة الأول»، وبهذا فقد كنت ضمن المرشحين لتولي الحكم. ولكن مادام قد تولاها السُّلْطَان «عَبْد القادر» فهو أهل لها. وهي تليق به، وجميعنا فداء للسلطان. ولهذا أريدك أن تحمل رسالة لأمي. قل لها يا أمي لا تحزني. وابنك «أونسة» يطلب منك الدعاء له ليرتاح في قبره. قل لها إن ابنها قد أصبح رجلاً، فهو من نسل الرجال الملوك. وأنه مات ميتة الأمراء الفرسان. وربما يكون هذا هو آخر العهد بك، فقد علمت أمس أنهم أعدوا النطع وصقلوا السيف! سلام عليك أيها المغربي، وسلام عبرك لأمي، الأميرة الأونسابية «بياكي»!

لم أستطع أن أرد عليه، فبكيت يأساً منه ومن إنقاذه. وفي واقع الحال كنت أبكي على نفسي، وعلى أمي وأبي، اللذين لم أتمكن من إنقاذهما من الموت، وبكيت على فشلي في الوعد الذي قطعته على نفسي أن أعيد للأميرة «بياكي» ابنها سالماً.

نحن نحب أن تكون حياتنا كما نشتهي، لكن ذلك ليس في أيدينا. ربما نعمل من أجل هدف نظن أنه هو أعلى قيمة وأثمن فائدة، لكننا لا نصل إليه أبداً. وغداً يقتلون هذا الأمير وبقية إخوته من الأمراء. وربما يكون هذا من أشد الأمور قسوة وفظاعة، فهو قتل نفس مؤمنة وهو من الجرائم الكبيرة، ولكن ربما يحقن الدماء ويحفظ أمن البلاد، فيقل التنافس بين الإخوة والصراع على العروش. لكنه ثمن فادح.

بقيت تلك الليلة ساهراً ولم أنم. فكرت في هذه السلطنة الوليدة. والصراع بين العادات والدين. في تلك الليلة جاء مقدم السواكرة وطلب مني البقاء في غرفتي بعد صلاة الفجر، ولم يوضح لي السبب لكني فهمت. وبالطبع لم أبق في غرفتي فقد رأيت الأمير «أونسة الثاني» وإخوته في تلك الليلة يتحضرون للموت، وكأنهم يتهيؤون لليلة عرس أو زفاف. فقد اغتسلوا وتطيبوا ولبسوا أكفانهم، وسهروا تلك الليلة يقرأون القرآن. ثم صلوا الفجر في جماعة، وذهبوا غير مخفورين إلى موضع القتل. وجلس كل أمير من أولئك الإخوة على النطع المخصص له.

وفي ذلك الصباح جاء «مالكٌ» سَيِّدُ القوم - متولي تنفيذ طقس الإعدام- بقامته الفارعة وجسده الضخم، شاهراً سيفه يمشي مشية الأسد، ثم رفع سيفه عالياً ، وأهوى به على عنق الأمير «أونسة الثاني»!

***

عودة الأموات

تحطمت آمالي بعد قتل الأمير «أونسة». ذاك السيف كأنه قطع عنقي أنا، ولم يقطع عنق ذلك المسكين! بل مسكينة أمه فقد فجعت في ولدها. وفي واقع الأمر كلانا صاحب فجيعة.

خرجت من القصر متثاقلاً أجر رجلي جراً. ومشيت حتى وصلت الكوخ. وفي الطريق لقيني «شَاوِرْ» وسلم عليَّ فلم أرد عليه السلام، فظنني غاضباً من آخر لقاء لي معه، حين اتهمني بالجبن وسخر مني. وبعدما تجاوزته طأطأ رأسه مطرقاً، ثم مضى مكسور الخاطر. جمعت ملابسي على عجل وربطتها في صرة، ثم حملتها واستأجرت دابة، وتوجهت إلى بتري الشرقية.

في الطريق بقيت أحدث نفسي. هل أذهب لمقابلة الأميرة «بياكي» وأخبرها بفاجعة قتل ولدها ووصيته لها؟ أم يا ترى أعود وأتجاهلها، وكأن شيئاً لم يكن. وعلى أية حال سوف تأتيها الأخبار، عاجلاً أم آجلاً! تركت الأمور دون أن أعزم على شيء. وقلت في نفسي إن أهم شيء أفعله الآن هو أن أذهب فألقي بأثقالي كلها على صدر «صليحة»، وأحكي لها كل ما حدث معي، فهي ملجأي الذي يقبلني في جميع الظروف والأحوال، ويحمل عني همومي ويغسل أحزاني.

كانت الرحلة من سنار إلى العيلة فونج أطول رحلة قطعتها في حياتي. ولما قابلت «صليحة» أحسست كأنني قد أخرجوني من النار، بعد عذاب استمر ألف سنة، وأن أبواب الجنة قد فتحت مشرعة لاحتضاني. كان وجهها منيراً بفرحة اللقاء. أسرعت إليها مثلما يسرع الوليد إلى أحضان أمه. ولابد أنها لاحظت اضطرابي، لكنها لم تسألني عن سبب ذهابي المفاجيء، ولا حضوري غير المتوقع. كانت هادئة وادعة. تركتني بين ذراعيها إلى أن هدأت نفسي، وعادت روحي إلى جسدي. ثم أخذتْ أمتعتي ودخلتْ بها غرفتي لترتبها. لكنها سرعان ما جاءت خارجة وقد حملت تلك الوصية في يدها، والدموع منسابة من عينيها على خديها. لابد أنها وجدتها مخبأة بين الثياب. أخذتني المفاجأة غير المتوقعة. لكني تمالكت نفسي وهرعت لآخذها منها، فلابد أنها قرأتها. وبعدما استعدت تلك الوصية من يدها لم أقدر على الكلام، فبقيت صامتاً. لم أستطع إخبارها بأي شيء أو أشرح لها ما حدث. ونظرت إليها مرة أخرى فلاحظت أن تلك الدموع هي دموع الفرح، وليست دموع الحزن والأسى، فعلمت أنها فرحت بنجاتي من الموت والقتل، وأنها تبكي لذلك.

مزقتُ تلك الوصية صامتاً. وحين تمالكت نفسي قلت لها إن ذلك ليس شيئاً مهما وعليها أن تنساه، فسكتت. ثم حاولتُ تغيير الموضوع فسألتها عن جدها الحاج، وأنني لم أقابله منذ مدة، فحين حضرتُ في المرة الماضية كان غائباً في (عَلْوَان). قالت لي وهي تمسح الدموع من عينيها:

– أتذكر ما حدثتك عنه في رسالتي حين قلت لك إن الشيخ «إبراهيم اللقاني» قد أخبره بأنه لقي بعض أقربائه في مصر؟ الآن حضر هؤلاء الأقرباء من مصر لزيارة الحاج بعد أن افترقوا عنه أثناء الفرار من القشتاليين في الأندلس قبل مدة طويلة. وهم لم يقابلوا الحاج منذ تلك السنين، منذ أن عبروا ذلك المضيق من بلاد الأندلس فراراً.

– ومن هم هؤلاء الأقارب يا «صليحة»؟

– الشيخ «شمس الدين اللقاني» وزوجته. وقد عاشا كثيراً من المآسي هناك في الأسر، حيث أجبرهما القشتاليون على اعتناق النصرانية، وتغيير اسميهما، لكنهما بقيا مسلمين سراً. وحين تمكنا من الفرار أخيراً قررا الهجرة إلى هذه البلاد، ليمضيا بقية حياتهما مع الحاج «عَبْد الحميد» ويجمعا الشمل. لكن العجيب يا «عَبْد السميع» هو أن هذا الشيخ يشبهك كثيراً. وإن لم أكن مخطئة فربما يكون هو عمك الذي أخبرتني أن القشتاليين قبضوا عليه، وعلى خالتك، بينما فررتم أنتم في ذلك المركب. فقصتهما قريبة من قصتك.

– ياللهول يا «صليحة». وما اسم زوجته؟

– الحاجة «أنيسة»!

حين قالت ذلك لم تحملني قدماي فجلست على الأرض. ثم قمت فجأة صارخاً:

– خالتي خالتي! هذه خالتي يا «صليحة» ما دام اسمه «شمس الدين» وزوجته اسمها «أنيسة» فهو عمي. أقسم بالله. أنا متأكد من هذا. و«أنيسة» هذه تكون خالتي. ما زلت أذكر هذه الأسماء. ما نسيتها طول هذه المدة.

اغتظت كثيراً حين قابلت حماسي ببرود. ثم قالت دون اكتراث:

– ربما! من يدري يا «عَبْد السميع». أنت أصبحت كثير الأوهام هذه الأيام. مرة تكتب الوصايا وتتخيل أنك ستموت! ومرة تقول إن القادمين هما عمك وخالتك. ما الذي جرى لك في سنار؟ هل ضربك أحدهم على رأسك؟

قالت ذلك ولم تلتفت ناحيتي، ولم تنظر في عيني أبداً. فعلمت أن في الأمر شيئاً تخفيه عني.

قلت لها:

– ألم تقولي بنفسك أن هذا الشيخ يشبهني كثيرا؟ وأن قصته مشابهة لقصتي؟ بل ما الذي جرى لك أنت؟

قالت وهي تخفي ابتسامة ماكرة:

– أنا قلت هذا؟ ألم أقل لك إنه قد حدث لعقلك شيء؟ يا متوهم؟

– بلى قلت هذا. أنا متأكد أنك قلته. والآن صرت متأكداً أكثر أنهما عمي وخالتي. أقسم بالله!

- وأنا أقسم بالله إنهما ليسا عمك وخالتك!

حين قالت هذا الكلام أصابتني بالصدمة والإحباط. «فصليحة» عودتني ألا تقسم بالله إلا وهي متأكدة تمام التأكد مما تقول. فصدقتُها. ثم قلت وأنا أشد شعر رأسي في أسى وغيظ:

- أين هما بالله عليك؟

- قادمان مع جدي الحاج. الصبر جميل! يا جميل.

قالت هذا وضحكت، ثم دخلت غرفتها ولم تنظر ناحيتي. وحين تبعتها ودخلت وراءها وجدتها تبكي. ودهشت لهذا التحول في مشاعرها، فهي تضحك خارج غرفتها، ثم تبكي داخلها. وحين جئت ناحيتها احتضنتني بقوة، لكنها بقيت صامتة، ثم خرجت وتركتني متحيراً. ولم تطل حيرتي كثيراً فقد وصل الضيفان. وكنت متلهفاً لمعرفة هذين القادمين وحين رأيتهما من بعيد عرفتهما. فقد كانا عمي «شمس الدين» وخالتي «أنيسة»! ألم تقسمي بالله يا صليحة إنهما ليسا عمي وخالتي؟

طرت إليهما طيراناً. لم تتغير ملامحهما، رغم أنهما قد كبرا في السن، وظهر الشيب عليهما. احتضنتهما، قبلتهما، تمسحت بهما وبأثوابهما. بكيت كثيراً وكانا يبكيان مثلي وأكثر. بقيت أبدل بينهما فأحضن عمي تارة، وخالتي تارات أخرى، ثم أنتقل إلى عمي. لم أشبع منهما. كلمتهما بشوقي إليهما. بكيت بصوت عالٍ مثل الطفل الصغير، فقد عدت طفلاً صغيراً

بالفعل. انتقلت بذكرياتي كلها في تلك اللحظات إلى بيتنا في قرطبة، حين كنا أسرة واحدة. هما وأبي وأمي. كنت كعصفور صغير أطلقوه من القفص، فطار محلقاً في الفضاء. أحسست بالحياة والفرح والأمل والجمال. أحسست بذاتي معهما. حنانهما لم يتغير . نفس فرحتهما بي حين كنت ألعب أمامهما وأنا طفل صغير. صوتهما الدافيء الحنون، المختلط بالحزن العميق. احتضناني كالطفل الصغير. كانت «صليحة» وجدها الحاج يراقبان هذا ويبكيان فرحة. بقينا واقفين خارج الدار، نتبادل الحب والبكاء والضحك. قلت لهما:

– هل علمتما بموت أمي وأبي؟

ابتسما ولم يردا على سؤالي.

كررت السؤال:

– خالتي هل أخبروك بوفاة أمي وأبي؟

تصنعت خالتي الدهشة وقالت:

– فعلاً؟ الله يرحمهما يا «عَبْد السميع»!

وهنا تدخل الحاج «عَبْد الحميد» وقال لهما:

– يكفي أخبراه! ولكن أخشى أن يتوقف قلب هذا المسكين من الفرح.

قلت ملتفتاً ناحية جدي:

– يخبراني بماذا يا جدي؟ بعودة أبي وأمي من الموت؟ محال هذا. أم أنهما لا يعرفان أن أمي وأبي ماتا؟ لا تقل لي إنهما لم يموتا، فقد كنت معهما. ورأيت أبي تأكل الكلاب من بطنه، ورأيت أمي وقد حملوها في عربة الموتى.

ارتسم الحزن على وجه خالتي وعمي، حين سمعا هذا الكلام. وترحما عليهما ثم بقيا ساكتين.

لكن الحاج «عَبْد الحميد» قال:

– نعم. سأقول لك إنهما لم يموتا؟

احترت من كلامه وقلت غاضباً:

– ما بكما يا حاج أنت و«صليحة»؟ منذ قليل «صليحة» تقسم لي بالله أنهما ليسا خالتي وعمي، ثم يتبين أنهما خالتي وعمي! سوف تصومين ثلاثة أيام يا «صليحة» كفارة لليمين الكاذبة!

– والله لن أصوم كفارة يمين يا «عَبْد السميع»!

– وتقسمين بالله مرة أخرى؟ وأنت يا حاج كيف تقول إنهما لم يموتا وأنا أقسم بالله إني رأيتهما بعيني؟

هنا تدخل الشيخ «شمس الدين» فقال:

– بل يبدو أنك أنت الذي ستصوم ثلاثة أيام يا «عَبْد السميع»، يا ابن «أنيسة».

– كيف؟ «وأنيسة» هذه هي خالتي يا عمي! نعم هي في مقام أمي وقد ربتني!

– بل «أنيسة» هي أمك وأنا أبوك. واللذان ماتا هما عمك «إبراهيم»، وخالتك «فاطمة»، يا «عَبْد السميع» يا ولدي.

– كيف هذا و«إبراهيم» هو أبي و«فاطمة» هي أمي؟

– أنت ولدت ونشأت في نفس بيت عمك وخالتك، ورضعت من ثدي أمك وخالتك في الوقت نفسه، لكن خالتك «فاطمة» مات رضيعها وهو صغير، فأرضعتك وعاملتك مثل ولدها. وأنت أصبحت تقول لها أمي. وهذه أمك الحقيقية «أنيسة» لم تر باساً في ذلك الزمان! فالخال والد. وحين أردنا الهرب في ذلك المركب وأدركنا القشتاليون فأعادونا كنت أنت مع خالتك «فاطمة» التي كانت تحبك حباً عظيماً، لدرجة أنك بقيت معها في جميع الأوقات حتى في لحظات الفرار تلك. فتمكنتم من النجاة في ذلك المركب أنت وخالتك وعمك، في حين بقينا نحن في الأسر. وحرمنا منك أنا وأمك، طوال هذه السنين. لكن يشاء الله أن يجمعنا بك فنراك قبل أن نموت. وحين أخبرني «عَبْد الحميد اللقاني» أنك حي يا «عَبْد السميع يا لَقَّاني» وأنك أصبحت صهره وزوج حفيدته لم أصدق في أول الأمر، حتى رأيتك بعيني. أنظر إلى وجهي وأنت تتأكد أني أنا أبوك وأن «أنيسة» هي أمك. نحن بحثنا عنك وعن عمك وخالتك طويلاً ولم نعثر

لكم على أثر. وكدنا أن نفقد الأمل في معرفة مصائركم، لكننا لم نيأس، ولم نتوقف عن البحث حتى وجدناك. فالحمد لله. لقد رأيناك وجمعنا الله بك. ولم تذهب دعواتنا سدى أبداً.

***

وبعد، فقد كانت هذه حكايتي. أنا محدثكم «عَبْد السميع بن إبراهيم المغربي» الذي بعدما عاد لي أبي أصبحت «عَبْد السميع بن شمس الدين اللَّقاني» وعادت لي أمي فأصبحت ابن الحاجة «أنيسة بنت الحاج موسى الغرناطي».

كتبت هذه الحكاية آخر العمر في ناحية (عَلْوَان) بمنطقة البطانة إلى الشرق من خرائب (سُوبَا) ومسيد الشيخ «إدريس بن محمد الأرباب» بالعيلة فونج.

***